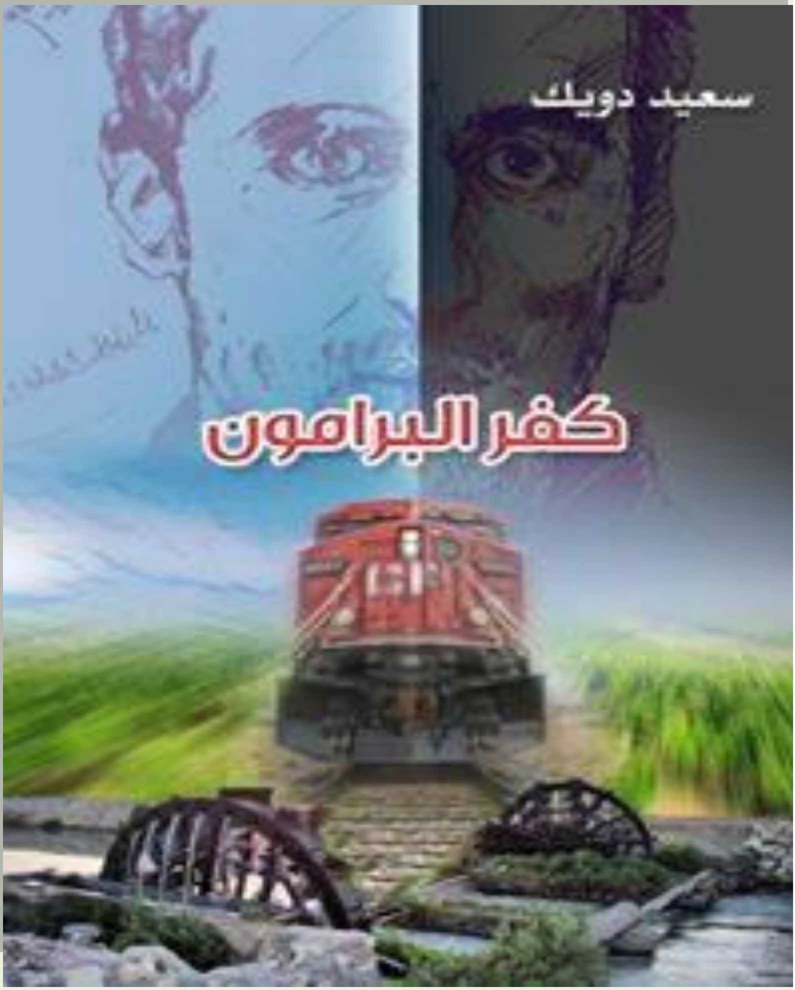


دار مداد

رقم الإيداع ٣٢١٣ / ٢٠١٥

"إهداء"

إلى أخي "فتحي" رحمه الله:

أبعِد عنك

أتوه منك

واتوّهِك

وأرجع

وَالَاقي

كل حاجة فيّا

تِشبهك

كل حاجة بتفكرني بيك

وتندهك

* * *

أغسطس ٢٠١٣

كمشهد من فيلم سينمائي عالي الإخراج والجودة..

طلقات الرصاص تتطاير كالمطر في كل مكان..

رائحة الحريق تُزكم الأنوف،

فكل شيء يحترق.. كل شيء،

وكأنه يوم القيامة؛ وكأن جهنم قد سيقت للظالمين والعصاة..

تتداخل أصوات الصراخ مع أصوات السرينة المزعجة التي لا تتوقف.

يرى الناس أمامه كأنهم أشباح خرجوا لِتَوّهم من القبور بسبب آثار الدخان على وجوهم..

تختلط الأصوات في أذنه.. يجري كبطل أسطوري في ملحمة إغريقية..

يجري كما لم يجرِ من قبل..

يحمل شخصاً فوق كتفه،

لا يعبأ بمن يعترض طريقه.. يقذف أحدهم بيده الخالية بعيداً عن طريقه.. ويراوغ آخر.

وبرغم ما هم فيه إلا أن منظره قد أثار إعجاب كثيرين ودهشتهم؛

لإصراره على الوصول إلى هدفه برغم حمله الثقيل..

بل إن تلك "اللقطة" قد تركت أثرها في كثيرين عندما التقطتها إحدى العدسات وتم عرضها بعد ذلك.

....

(١)

قبل ٢٠ عامًا من المشهد السابق

في محافظة الدقهلية

قرية كفر البرامون التابعة لمركز المنصورة والواقعة على طريق دمياط الشرقي، في منتصف المسافة بين المنصورة وشربين تقريبًا.

كفر البرامون التي اشتق اسمها من "آمون" إله الشمس الذي يقال إن له بئراً هنا..

وتحولت بئر "آمون" إلى "برامون".

والبرامون ككل القرى في ربوع مصر، لا بد لها من كفر وعزبة ونجع، أو ميت أو كوم..

فالبرامون بجوارها عزبة البرامون، وكفر البرامون.

وكفر البرامون تلك لها أسطورة كبرى ولعنة من نوع خاص توارثتها الأجيال، وتعايشت معها..

كما أنها تعد من أشهر القرى على مستوى الجمهورية في إنتاج الموالح؛ حيث يوجد بها أكبر مساحة لأرضٍ زراعية للموالح، ثم أصبح بها –فيما

بعد- أكبر سوق لتجارة المواشي على مستوى الجمهورية "سوق الثلاثاء"، ولها خاصية فريدة أخرى؛ فكل القرى المجاورة قد اختارت أن تكون بجوار الطريق العام إلا كفر البرامون؛ فقد ضحّت بقربها من الطريق السريع، واختارت أن تكون بقرب النيل؛ مما أبعدها كيلومترين كاملين عن الطريق..

وبُعدها عن الطريق أورث أهلها ميزة؛ فهم بسبب صعوبة السفر من وإلى المدينة، أصبحوا مترابطين فيما بينهم أكثر من أي قرية أخرى.. أصبحوا أكثر انغلاقاً على أنفسهم.. لا يعرفون أسماء بعضهم فحسب بل وصفاتهم وعاداتهم.

وقد كان حدثاً تاريخياً عندما نزل أحد الغرباء إلى القرية يوماً ما.. وانصرف هذا الغريب دون أن يعرفوا لمن أتى ولماذا.

ومازال هذا الجرح يؤرقهم؛ ولكنهم تعلموا من خطئهم هذا الكثير؛ فلا أحد ينزل القرية إلا والكل يعرف مَن هذا، وذاهب لمن، ولماذا؟

في الجنازات الكل موجود.. في حالات التبرع بالدم كل الفصائل التي تتشابه مع المريض رهن الإشارة، يوجد كشف بفصائل القرية في المسجد الكبير، به قائمة بأسماء القرية وفصائلهم، وإذا أردت فصيلة ما فما عليك إلا أن تذهب لتعرف من تطلبه.

بل وفي حالات الولادة أيضًا تجد صور التضامن واضحة كما يحدث الآن عند خيري..

ذلك الرجل البسيط صاحب الشعر الأسود الناعم، وعينيه الخضراوين بلون زرع أرضه، مفتول عضلات اليد بطريقة لا تتناسب أبداً مع جسده الرفيع؛ وكأن كل جسده وقف عن التطور والنمو عدا عضلات يده.

وبرغم قسوة الشمس التي تركت آثارها على وجوه الفلاحين؛ إلا أن وجهه ما زال يحمل وسامته..

وكأن الشمس استثنته من عقابها، أو أنه من نتاج الحملة الفرنسية على مصر كما كان يمزح معه أصدقاؤه.

كان خيري يشعر بالقلق الرهيب ويفرك يديه بطريقة عصبية..

كانت زوجته زينب تضع مولوده الأول.. ابنه الذي طال انتظاره..

انتظار دام لأكثر من ٥ سنوات.. جرّب فيها كل شيء؛ من طب ودجل وشعوذة..

بل إن بعض نساء القرية كانت تنتظر زينب في طرقات القرية وتختبئ لها لتفزعها؛ آملين أن الخضة ستجعل رحمها يحمل الولد لخيري.

كانت كلما مرت في شارع وجدت على ناصيته من تخرج إليها صارخة في وجهها، أو من تأتي إليها في بيتها زاحفة على ركبتيها صارخة في ظلام القرية (قبل الكهرباء).

كان خيري يشتاق للولد كثيراً.. يشتاق لمن يحمل اسمه ويخلده ولمن يرث ماله وبيته وأرضه..

لم يكن له أخوة أنجبه أبوه وتوفي بعدها، وترملت أمه حتى ربّته.. كان وحيداً، وتمنى ألا يموت قبل أن ينهى هذه الوحدة..

اسمه واسم أبيه سينتهي، وبعد عدة سنوات لن يذكره أحد من القرية، وماله سيقتسمه أولاد العم والخال..

لا يملك الكثير؛ ولكن يحزنه أن تعبه وكدّه سيذهب لغيره..

لا يعلم أهل المدن معنى ألا تنجب في قرية يعرفك كل بيت فيها؛ فتشعر في كل نظرة من نظراتهم بالدعاء لك أو بالشفقة، أو لربما فُسّرت نظرات بعض أهلها على أنها تحمل الفرح والتشفي فيك..

لا بد من أن يكون نصف كلامهم لك عن الولد أو الزواج من أخرى.. في كفر البرامون عندما تتأخر العروس عن الحمل بعد أسبوعين يتساءلون عن السبب ويبدأون في الغمز واللمز؛ فما بالك بتلك السنوات التي مرت علي خيري وزوجته.

وفجأة..

حملت زينب..

بلا أية مقدمات أو إشارات..

فجأة جاءه الفرج أخيرًا..

وفرح خيري كثيراً، وانتظر ابنه، وكان متأكداً من كونه ذكراً.. كان يقول لصديقه عبد المولى: أنا واثق إن ربنا مش هيحرمني من الولد بعد كل ده إن شاء الله.

وعندما تأكدوا من الخبر لم يجعل خيري زوجته تفعل أي شيء؛ بل لم يجعلها تتحرك من السرير إلا للضروريات عكس ما كان يحدث وقتها في الكفر كله..

ففي تلك الآونة وفي تلك القرية لم تكن هناك سيدة ترتاح حتى أثناء الحمل؛ بل إن خيري نفسه وضعته أمه وهي تعمل في جمع القطن..

وما زالت أمه تُقسم له أنها بعد وضعها له بدقائق قامت ووضعته جانباً، وقامت لتكمل جمع القطن لتسليمه للجمعية الزراعية..

أمّا خيري فقد وفّر كل وسائل الراحة التي يستطيع فعلها لزوجته زينب.

***

- مية سخنة بسرعة.

كان هذا صوت هياتم حسناء القرية..

أميرة جاءت إلى القرية من قرية بعيدة وتزوجت في كفر البرامون..

ومـن يومهـا وتـيقن النـاس أن النسـاء خـارج القريـة يختلفن تمامًـا عـن داخلها.

"هياتم" تلك المرأة التي كانت محط أنظار الجميع.. لا تمشي في مكان إلا تتابعها العيون في جوع وعطش..

هياتم التي سافر زوجها إلى العراق ولم يعد يأتي إلى القرية إلا كل عام بضعة أيام؛ حتى بعد دخول العراق لأكثر من حرب، ربما وجد نفسه عاجزاً عن امتطاء هذا المهر البري ففضل أن يتحجج بسفره في العراق.

وكل يوم يمر تزاداد هياتم جمالاً وأنوثة ودلالاً..

ضحكاتها تجعل خلايا الدم في الرجال تغلي من السخونة..

ولم تُشاهد مرة في موقف مخز أو علاقة مشبوهة؛ مما شدد تعلّق الرجال بها؛ وكأنها الفاكهة المحرمة..

ربما كان الوحيد في القرية الذي لا يتابعها بنظره هو الشيخ محسن أبو الرجال إمام المسجد ومحفظ القرآن في القرية..

وهو لا يتابعها بنظره لأنه ببساطة ضعيف النظر؛ فلا يعلم ما تحمله تلك البارجة الحربية من صواريخ؛ بل إن خيري رأى الثور الذي يملكه عبد المولى ينظر إلى هياتم نظرة أثارت دهشة خيري للغاية!! هذا الثور الذي

وظيفته في الحياة هي أن يؤتى إليه بإناث البهائم من القرية، وبعض القرى المجاورة، لتلقيحها مقابل مبلغ مالي لعبد المولى..

يأكل ويؤتى إليه بالأنثى.. ويظل عبد المولى وصاحب الجاموسة يترجون في الثور حتى يوافق

وأيضاً بمقابل..

معلومة: ليس كل الذكور سيئو الحظ..

ينظر خيري ليرى أمامه الشيخ محسن أبو الرجال ومعه أحد شباب القرية يمسك بيده ليريه الطريق لنظره الضعيف، وهو يقترب من خيري، قبل أن يقول الشاب الممسك يده: ها هو عم خيري يا شيخنا..

يقابله خيري في لهفة وهو يقول: أنت جايلي مخصوص يا شيخنا؟

يرد الشيخ محسن في ابتسامة ملائكية: هو عندنا في البلد كام خيري؟!.

يبدو التأثر واضحاً في صوت خيري وهو يقول: ربنا يبارك لنا في عمرك يا شيخ.. ادعيلي.

الشيخ محسن في هدوء: ربنا يرزقك الرضا.

يسكت خيري وكأن الدعوة لا تروقه قبل أن يقول: أنا الحمد لله راضي يا سيدنا...

تتسع ابتسامة الشيخ محسن وهو يقول: يا خيري الرضا مش كلمة بطرف اللسان، وعموماً ربنا يكرمك ويسترك. ثم يمسك يد الشاب، وهو يقول: اذهب بي إلى المسجد يا بني.

وقبل أن ينصرف نظر إلى خيري قائلاً وابتسامته قد أصبحت ضحكة: ربنا يكرم زوجتك زينب بولدين، مش ولد واحد يا خيري.

تهللت أسارير خيري..

قبل أن تدوي في المكان صوت صرخة طفل، وتخرج هيام وهي تهتف في سعادة: مبروك يا أبو الولد.

يجتمع الناس حول خيري مهنّئين، وهو يحاول أن يتملص منهم ليذهب إلى زينب..

وقبل أن يدخل إلى زوجته؛ إذ بهيام تخرج وهي تصرخ: ولدين يا خيري، زينب جابت توأم..

وهنا تتسع عينا خيري في ذهول وهو يتذكر دعوة الشيخ محسن، ثم يخر على الأرض ساجداً.. ويربت عبد المولى علي كتفه مهنّئاً، وهو يقول: قوم يا عم هو أنت جبت جون؟! اجري بقى سلّم على المدرب ثم نظر إلى الداخل قائلاً: والله البت هيام دي بنت حلال ووشها حلو.. وتستاهل بوسة.

نهض خيري مسرعاً، وقبل أن يدخل على زوجته تنحنح بصوته حتى تأخذ السيدات عند زينب حذرهن عند دخوله..

دخل خيري على زوجته زينب؛ تلك الزوجة المصرية كما الكتاب.. التي تبكي عند سفر زوجها، وعند عودته؛ تبكي عند الفرح وعند الحزن..

تبكي عندما يحزنها زوجها وعندما يسعدها

هي لا تفعل في حياتها إلا البكاء

وأشياء أخرى

تلك الزوجة التي قد تُواجه الدنيا بأكملها من أجل زوجها..

قبّل خيري زوجته على جبينها؛ مما جعل النساء الموجودات في غرفتها يتغامزن فيما بينهن، قبل أن يقول خيري لزوجته: ألف حمد لله ع السلامة يا حبيبتي.

قالت له زينب: الله يسلمك يا أبو الولاد، مش هتسلّم على ولادك؟

قال لها خيري في حنان: الأول اطمّن على الغالية، ثم نظر إلى ولَدَيْه وهو يتمتم بآيات قرآنية لا يسمعها أحد، وقال لها: هنسميهم إيه؟

زينب: اللي تشوفه أنت...

قال لها: هسمي واحد على اسم أبويا الله يرحمه.. والتاني على اسم أبوكي ربنا يديله الصحة.

وهنا تحاملت زينب على نفسها لتنهض جالسة، وترتمي على صدر زوجها الجالس بجوارها، وتبكي في حضنه تأثراً..

وهنا هتفت هيام في خبث: هاتي ملاية يا بت اجري، نغطيهم بيها بدل الفضايح دي.

وانطلقت ضحكات الجميع في سعادة.

***

(٢)

في المرحلــة الابتدائيــة بــدأ التوأمــان في تكــوين ملامحهمــا الخارجيــة، وشخصيتهما قد بدأت أيضاً في التكوين..

فسامي أقل ميلاً للتعليم، وأقل اهتماماً بدورسه وواجباته.. لا تستهويه الدراسة كثيراً.. مهمـل جـداً في واجباتـه ودروسـه وكتبـه.. يأتي يوميـاً بـدون قلمه ونصف كتبه..

حتي تلك الكتب التي يعـود بهـا؛ كـل كتـاب منهـا ينقص يوميّاً بضـع ورقات، وكأنه يلتهمه، أو هناك من يشتري منه تلك الأوراق..

ونصف الكتب التي يأتي بها هي في الغالب ليست كتبه؛ بل كتب أحد التلاميذ..

كانت مريلته عبارة عن لوحة سريالية مسموح للرسم عليها بكل شيء..

من ألوان.. إلى ماء.. إلى طين

وكان أكثر حركة، وأكثر افتعالاً للمشكلات؛ فلا يأتي يوماً إلا وقد فتح رأس أحدهم أو عض آخر أو خربش ثالثاً..

أما سمير فكان على نقيضه تماماً

كان مهتماً بدروسه، كان يُظهر تفوقاً ملحوظاً في مراحل تعليمه..

كان أكثر اهتماماً بواجباته؛ بل كان يكتب لأخيه معظم واجباته دون علم والديهما..

وكان أقل ميلاً للمشاجرات، وأقل افتعالاً لها؛ ولكنه دائماً في مشكلة بسبب أخيه..

كان جميع الطلبة يتشاجرون معه يومياً؛ لأنهم لا يعلمون من هو سامي فيهم ومن سمير؛ فيقابلونه ليكملوا معه مشاجرات الأمس؛ ظناً منهم أنه سامي صاحب مشاجرة الأمس.. وليس هو طبعاً من يستطيع الدفاع عن نفسه؛ فيأخذ "الطريحة" كاملة..

جرب خيري مع سامي كل شيء ليهتم أكثر بدروسه.

وكانت زوجته زينب دائماً ما تمنعه من الضغط على سامي قائلةً له: كل واحد في ولادك له ميزة.. ما تقارنهمش ببعض...

خيري: بس نفسي يا زينب يطلعوا حاجة.

زينب: أنت بتعمل اللي عليك والباقي على ربنا.

خيري: ونعم بالله...

زينب: تفتكر إن إحنا نقدر نختار لهم حياتهم، إحنا يا دوب نشاور لهم على الطريق.. ويا عالم ربنا كاتب لهم إيه في آخره...

فقال لها خيري مبتسماً: إية يا واد الحكمة دي كلها.

احمر وجهها خجلاً قبل أن ترد: مش مرات خيري، يبقى لازم أبقى متكلمة زيه.

كان هذا الحوار قبل أن يقتنع خيري بكلامها، ولا يضغط كثيراً على سامي؛ فقد اقتنع أن كلاً من ولديه لديه صفاته المميزة؛ فبرغم تطابقهما التام في الشكل الخارجي؛ إلا أنهما يختلفان تمام الاختلاف في الشخصية.. بل هما على النقيض تماماً..

ولكن هناك منطقة حدودية لسامي لم يُسمح له بالتخلي عنها، وهي حفظه للقرآن.. وقد كان سمير أكثر حفظاً للقرآن من سامي..

وكان سامي يُضرب كثيراً من الشيخ محسن، الذي ما إن يقترب منه سامي ويسأله الشيخ عن اسمه فيخبره أنه سامي حتى ينهال عليه الشيخ ضرباً بلا أية أسباب..

كان الشيخ محسن في كُتّابه يختلف تماماً عن هذا الملاك بالخارج.. كان يمسك تلك الجلدة التي ما زالت لها علامات في جسد كل رجال القرية؛ من أطباء ومهندسين وأساتذة وفلاحين..

الكل ذاق تلك الجلدة من الشيخ الذي كان لا يرحم المخطئ والمقصر..

والذي كان لا يعنيه النقود كثيراً، لا يهتم بمن دفع أو من لم يستطع..

كان كل ما يعنيه أن يعلم أبناء قريته القرآن.. كان يتمنى أن تصبح قريته بلد القرآن..

ولهذا عندما كان يقع في يده أحد أبناء القرية لا يُبدي اهتماماً بالحفظ، كان يعتبره تحدياً شخصيّاً له،

وكان سامي بالطبع هذا الصيد الثمين للشيخ محسن..

فهو المهمل في حفظه، وفي مصحفه.. ولا يحفظ المطلوب منه، وإذا حفظه اليوم نسيه غداً..

وكان الشيخ يقسو عليه ليجعله يهتم أكثر بالقرآن..

كان يقول له: اتساهل في الحساب، في الرسم؛ بس اوعى تطنش القرآن.. ربنا مش هيحاسبك على إنك جاهل ومتعرفش مساحة الأردن.. لكن ربنا هيحاسبك على كتابه.

وكان سامي يحاول جاهداً تخفيف وطأة العذاب؛ بالحفظ أحياناً، وبتبديل نفسه بأخيه –بعد محاولات جادة مع أخيه– أحياناً أخرى؛ لأن أباه كان يمانع ذلك الأمر.. فقد كان يرفض أن يأخذ أحدهما مكان الآخر..

ولكن مع إصرار سامي، وتوسلاته أمام أخيه، وخوفه من بطش الشيخ؛ كان أخوه يرضخ أخيراً.

ومع التطابق في الشكل، وضعف بصر الشيخ، كانت المسألة منتهية..

سمير يقف أمام الشيخ ليسمعه الجزء المطلوب منه حفظه.. ثم يذهب ويعود بمصحف سامي ليقوم بالمهمة كاملة عن أخيه..

وكان سامي لا يبخل على أخيه بشيء.. كانا فعلاً روحاً واحدة..

كانا يقتسمان كل شيء يشتريانه من دكان هيام؛ فهيام قد فتحت محل بقالة بعدما انقطعت أخبار زوجها في العراق تماماً، لم يعد يُسمع عنه أو منه شيء.. و كان معها بعض الحوالات الصفراء التي تَوَقّف صرفها.. فاضطرت أن تفتح هذا المحل لتعيش منه وتنفق على نفسها، وبدأ بعض الرجال في مضايقتها في محلها..

فيذهب رجل ليشتري شيئاً، ويريد أن يفتح حواراً أو يبدأ في كلام عابر ربما ينول بعده شيئاً..

وكاد الأمر يصل إلى أن تغلق محلها من المضايقات؛ لولا خطبة الشيخ محسن عن الرجال الذين يضايقون امرأة تريد أن تعول نفسها بالحلال..

وخشي بعضهم أن يتطور الأمر بالشيخ ويذكر أسماء ويفضحهم.. ومن وقتها وانتهى الأمر، تقريباً..

فلا يخلو الأمر من إشارة عابرة لأحدهم.. أو نظرة لتلك المرأة الغائب عنها زوجها..

لكن هيام –وبشهادة الجميع– ظلت تلك الفاكهة المحرمة على الجميع التي يحرم على الجميع الاقتراب منها؛ وإلا كان العقاب هو الخروج من جنة كفر البرامون.

***

(٣)

في ليلة بلا قمر..حيث الظلام عباءة سوداء مفترشة الكون كله.. لا تكاد ترى يدك إن مددتها أمامك.

كان خيري مع كنزيه الصغيرين في أرضه؛ عندما قال سمير لأبيه بصوت مرتجف: إحنا ليه مابنرويش الأرض إلا بالليل كده؟

ضحك خيري في رفق قبل أن يقول: عشان الري بالدور، وزي ما دورنا ييجي، وكمان الري بالليل حلو لأن المية بتبقى باردة على الزرع، وأنت لو شربت مية سخنة بتتعب؛ أهو الزرع زيك كده بالظبط؛ فعشان كده أنا بحب ري الليل.

قال له سمير في عناد: وهو يعني كل الفلاحين حظهم النهار، وإحنا حظنا كده بالليل؟!.

قال له توأمه في جدية: خايف من إيه يا سمير؟

أجابه سمير: خايف من الضلمة يا سامي.

ربت سامي على كتفه، وكأنه أخوه الأكبر وليس توأمه الذي في سنه: طول ما أنا معاك ماتخافش.

نظر إليهما خيري، وسامي يحتضن سمير، قبل أن يقول الأخير: أنا بكره زراعة الذرة دي أوي،

متعب في كل حاجة، في رش الدوا بالماتور ورش الكيماوي، وفي ورقه اللي عمّال يدبح في وشي.. ولا الشوشة بتاعته اللي فوق دي اللي ملت قفايا.

ابتسم أبوه قائلاً: طب والرز والغلة.. عادي؟

قال له سمير: التلاتة أصعب من بعض، أحسن حاجة نؤجرها.

ضحك الوالد من قلبه قبل أن يقول: شكلك هتبيع الأرض على طول يا سمير أول ما تحط إيدك عليها..

ثم نظر إلى ولديه اللذين أصبحا في المرحلة الإعدادية قائلاً: طب أنا عندي سؤال.. فكروا فيه براحتكم.. واللي يعرفه؛ له مني هدية جامدة أوي...

اتسعت عيون الصبييْن في فضول، قبل أن يكمل والدهما..

لو إنتوا راكبين قطر ماشي بسرعة كبيرة جداً، وعلى اليمين واحد زارع قمح وعلى الشمال واحد تاني زارع رز، الاتنين عمر أسبوع ولسه خُضر.. يعني شبه بعض خالص.. تعرف إزاي الفرق بينهم، والقطر بيجري؟

أنا مش عايز إجابة دلوقت.. فكروا وجاوبوا بعدين.

ثم أردف قائلاً: أنا رايح أول الأرض عشان أقفل من فوق عشان ما يغرقش الأرض، وإنتو خليكوا هنا جنب السد ده.

أجابه سامي: حاضر يا بابا.

قال سمير في عناد: وليه ما نروحش معاه وهو السد حد هيخطفه؟

انصرف خيري ضاحكاً قبل أن يقول لسامي: خلي بالك من أخوك.

التصق سمير بسامي أكثر، ومرت دقائق قبل أن يقول لأخيه: سامي.. اسمع، فيه حد بيسرق ذرة.

انصت سامي ووجد صوتاً يتكرر على فترات متقاربة من بعضها..

صوت وكأن أحدهم يقطع كوز الذرة من عوده..

لم يساور سامي الشك في أنه لص؛ فتوجه ناحية الصوت، وما لبث أن وجد أخاه ممسكاً بذراعه قبل أن يقول: رايح فين؟

أجابه سامي: للحرامي طبعاً، أمال نسيبه يسرق زرعنا.

سمير: ولو معاه حاجة وضربنا بيها؟

سامي: ما تخافش تعالى بس.

قال له سمير في خوف وذعر: ده شكل الحرامي هو اللي جاي هنا.

أنصت سامي إلى الصوت الذي يقترب ويظهر هذا واضحاً من صوت ارتطامه بأعواد الذرة..

وضم قبضته الطفولية في حركة مفاجئة وقطب حاجبيه لترتسم على وجهه نظرة أكبر من عمره..

كان سامي ينظر إلى اتجاه الصوت في تحدٍّ، وخلفه سمير مختبئاً خلف ظهره مغمضاً عينيه،

وفجأة جاء من الخلف صوت مفاجئ قائلاً: إيه الأخبار؟

صرخ سمير في رعب هستيري قبل أن يسقط في الماء وهو يحاول الهرب..

والتفت سامي إلى الصوت؛ ليجد والده وهو يمسك يد سمير ليوقفه على قدميه مرةً أخرى قبل أن يقول لأبيه : فيه حد بيسرقنا.

نظر خيرى إلى سامي باهتمام قبل أن يقول: مين؟ وفين؟

قال سامي: اسمع..

أنصت خيري إلى الصوت المتعاقب قبل أن يضحك بعلو صوته وسط دهشة ولديه..

قبل أن يقول لهما: يلَا بينا خلاص أنا قفلت على الأرض والصبح نيجي عشان نصرف الميه منها،

وسحبهما كل ولد في يد.

وخرج من أرضه إلى الطريق الرئيسي ليسير بجوار النيل.. ثم أشار لهما بكشافه إلى مركب في وسط النيل..

- شايفين ده، ده عمكم ربيع الصياد ومراته، بصوا كده..

نظر الولدان إلى المركب في وسط النيل..

كان عم ربيع ممسكاً بخوصة سميكة جدّاً وطويلة، يضرب بها سطح الماء..

ثم يرفعها لأعلى ويضرب بها الماء مرةً أخرى؛ ليُحدث هذا الصوت الذي سمعاه، وكانت زوجته في آخر المركب تلقي الشباك في النيل..

قال لهما خيري: عمكو ربيع بيضرب المية بالخوصة اللي في إيده، يقوم السمك مفزوع؛ فيحاول يهرب يقع في الشبك؛ يعني لا حد بيسرق ولا حاجة.

قبل أن يضحك بصوت مرتفع وهو يلوح بضوء كشافه لربيع الصياد: يا حاج ربيع اعمل حسابنا النهارده في اللي ربنا يجيبه.

أجابه ربيع من وسط النيل: اللي ربنا يجيبه بتاعك يا أبو الرجال.

كان هذا هو لقبه من يوم ولادة توأمه.. بعضهم قال لقد سموه بهذا تيمناً بنبوءة الشيخ محسن أبو الرجال، وبعضهم قال: لأنه والد التوأم..

المهم أن هذا اللقب انتشر في البلدة كلها، وأصبح هناك اثنان "أبو الرجال"؛ الشيخ "محسن أبو الرجال"، و"خيري أبو الرجال".

أخذ خيري ولديه عائداً إلى بيته، وما إن دخل حتى وجد زوجته في انتظاره: إلحق يا خيري

- خير يا زينب قلقتيني.

- عبد المولي التور بتاعه مات.

قال لها خيري: إزاي ده حصل؟

أجابته زينب: أنا معرفشي، دي البلد كلها هناك.. ولا عارفة أروح من غير ما أقولك، ولا عارفة أجيلك.

ذهب خيري مسرعاً إلى صديق عمره، قبل أن يقول لها: طب خلي الرجالة معاكي.

قال له سامي: لا أنا جاي معاك.

وهتف سمير: وأنا كمان جاي.

أخذهما خيري في يديه وهو يهرول إلى عبد المولى

***

كان عبد المولى جالساً على الأرض ينظر إلى الثور الملقى على الأرض بجواره جثة هامدة..

لا الثور يتحرك.. ولا عبد المولى ينبس ببنت شفة..

كان عبد المولى لا يملك من الدنيا إلا هذا الثور، كان هو دخله الوحيد.. لا أرض ولا عمل..

ولا يقوى على العمل كباقي الفلاحين.

كان عمله هو هذا الثور الذي كان يستخدم سابقاً في الساقية أو جر المحراث؛ أما الآن فاستخدامه الوحيد هو تلقيح إناث البهائم.

كان عبد المولى عندما يتقدم السن بالثور يبيعه لأحد الجزارين، ثم يضيف على المال ليشتري آخر فتياً.. والآن.. ذهب رأس ماله للأبد..

جاء إليه خيري راكضاً قبل أن يجلس بجواره على الأرض، ويسأله: إيه اللي حصل؟

نظر إليه عبد المولى وأشار إلى الثور قبل أن تغرغر عيناه بالدموع ولم يستطع الكلام.. وبكي..

كم هو قهر أن يبكي الرجال..

عمَّ الصمت المكان، لا يقطعه إلا نحيب عبد المولى..

وبكي خيري بجوار صديقه، وبكي ولداه..

وكانت عالية ابنة عبد المولى –الطفلة الصغيرة– تنظر إليهم نظرة مذعورة.

وجاء من بعيد الشيخ "محسن أبو الرجال" يقوده أحد شباب القرية، وأوصله إلى حيث يجلس عبد المولى الذي نهض ليأخذ بيد الشيخ؛ فبادره الشيخ قائلاً: إزيك يا عبد المولى؟ قالها الشيخ محسن باسماً.

رد عبد المولى بصوته الباكي: التور بتاعي مات يا شيخ.

كرر الشيخ محسن جملته مقلداً صوته في سخرية أثارت دهشة الحاضرين..

ثم تابع: تورك مات.. طب وإيه يعني؟! هو اللي بيرزقك ولا ربنا؟ هاا؟ جاوب..

قال عبد المولى: ربنا.

قال الشيخ محسن: وربنا لسه موجود.. يبقى الرزق لسه.. بلاش خيابة.. ده تور مات وخلصنا، نشوف مصالحنا بقى.. ونحمد ربنا على السنين اللي رزقنا فيها من ورا التور.. ولا نقعد نولول.. قول الأول الحمد لله.

قال عبد المولى: الحمد لله..

قال الشيخ محسن: لا.. قول الحمد لله من قلبك.

قال عبد المولى في رضا: الحمد لله.

أشار الشيخ محسن للشخص الذي يقف بجوار عبد المولى سائلاً: أنت مين؟

أجابه: أنا خيري يا شيخنا.

أجابه الشيخ محسن مداعبًا: أهلاً بأبو الرجال الأصلي.

أجابه خيري في حرج: العفو يا شيخنا.

أشار الشيخ محسن إلى خيري قائلاً: خد التور ده يا أبو الرجال بأي عربية كارو، وارميه في أول البلد، بس بعيد عن الطريق..

وأنت يا عبد المولى قوم اتشطف وأتوضا، وصلي الفجر، وإن شاء الله محلولة في صلاة الجمعة.

نظر إليه عبد المولى متسائلاً، قبل أن يجيبه الشيخ محسن وهو منصرف مع مرافقه: أيوة، إن شاء الله.

***

كانت خطبة رائعة من الشيخ محسن، تكلم عن التكافل والتضامن، تكلم عن الكثير من صور الإخاء التي حدثت في صدر الإسلام،

تكلم عن جزاء من فرّج كرب أخيه.. ثم تطرق إلى ثور عبد المولى وكيف كان له الكثير في أعناق أهل القرية.. أخبرهم أن تلك الجنيهات القليلة التي تأخذها في تخصيب المرة الواحدة لا تعادل ما رزقهم الله به في كل مرة من بهيمة بمبلغ كذا وكذا، ثم أخبرهم أن بعد الصلاة، وقبل أن يعود إلى بيته، سيمر على كل أهالي القرية الكل سيدفع ما يقدر عليه.

قال لهم الشيخ: اليوم سأمر عليكم بيتاً بيتاً، ولن أترك بيتاً إلا وهو متبرع، بمبلغ كان ما كان هذا المبلغ.. لن يمر هذا اليوم إلا وبالليل سنشتري ثوراً فتياً، وبالباقي سنشتري مراوح للمسجد.. وقد كان..

وجمع الشيخ محسن ضِعف ثمن الثور، وكان معه أحد شباب القرية يكتب كل اسم، وبكم تبرع، لم يكن أحد في القرية يستطيع أن يرد سؤال الشيخ محسن، ثم أخذ المال وذهب إلى خيري ونادى عليه: يا ابو الرجال!.

خرج خيري مسرعاً إلى الشيخ؛ فأعطاه الشيخ محسن المال وقال له: هذا أكثر من ثمن الثور، اذهب إلى السوق واشترِ أفضل ثور فيه، وأعط الثور

لعبد المولى، وأعطه هذه الورقة، وفيها أسماء كل من تبرع، وهات ما تبقى من المبلغ معك؛ لنشتري به مراوح للمسجد.. ثم انصرف..

***

(٤)

وسيلة الاتصال الأنجح في الكفر كانت هي الميكرفون الموضوع في منطقة عالية

إن فُقد شيء..

فيذهب صاحب هذا الشيء إلى عبدالعاطي صاحب الميكرفون، ويعطيه الجنيه، ويخبره أن ينادي: فيه كذا ضايع اللي يلاقيه يوديه لفلان الفلاني...

وأحياناً لا يعلن اسم صاحب هذا الغرض المفقود؛ خوفاً من أن يكون صاحب خصومة مع مَن وجده

ولا يرده إليه كيداً في خصمه..

فصاحب الميكروفون عم عبد العاطي يقول وقتها: واللي يلاقيها يجيبها هنا.

وعمك عبد العاطي له بدايات مُعلبة ومعروفة.. فعند ضياع شيء يكون بداية كلامه:

يا ولاد الحلال! يا رادين الأمانات واللهفات.

وقبل انتشار الموبايل ولو احتاج بعض الناس لأحد الأشخاص

كانوا يذهبون إلى عبدالعاطي الذي ينادي عليه:

يا فلان فيه ناس عايزينك في البيت..

وبالطبع وأثناء ذهاب هذا "الفلان" إلى بيته

يجد كل أهالي القرية الذين سمعوا النداء يخبرونه بأنهم يريدونه في البيت..

وربما يظل شهراً يذكّره أبناء القرية بأنهم كانوا يبحثون عنه؛ بل ربما تخبره "جنية البحر" أيضاً؛

تلك الجنيّة التي يدّعي نصف أهل القرية أنهم رأوها وهي تمشط شعرها على الشاطئ!! حتى عندما يكون لكفر البرامون حورية بحر لم يكن نصيبهم في حورية جميلة؛ بل كان نصيبهم واحدة تعاني من حشرات الرأس.

وعند الوفاة يصبح عبدالعاطي الإنسان الوقور الحكيم المتفاعل مع مصاب مَن يدفع له..

يتكلم في هدوء وحزن وبطء..

عند سماع البداية الخاصة بالوفاة، الكل يصمت، الكل يسكن ولا يتحرك؛ حتي العصافير تكفّ عن الزقزقة.

والرجل يمطّ في الكلام ويمد خمسين حركة متصلة ومنفصلة...

إنااااا

لله

وإناااااا

إليه

راجعوووووووووون

البقاااااااااااااااااااااااااء

والدواااااااااااااااااااام

للــــــــــــــــه

انتقل

إلى

رحمة

الله

الحاااج

هنبلمعهغبعغقءؤ٥٧ث٩نبؤ٧فقخه٦٧قؤخح

فعند اسم المتوفي يذهب صوت عبدالعاطي

وكأنه يتعمد جذب الانتباه لمرات أخرى..

أو ربما ليصيب القرية بالشلل قبل معرفة اسم المتوفى

وعند الحرائق

وبيوت الفلاحين بالقش،

حريقاااااااااااا حريقااااااااااااااااااااااا

الله أكبر

حريقاااااااااااا حريقاااااااااااااااااااااا

البلد كلها أصبحت في الشارع ومشمرة جلاليبها وحاملين عبوات المياه المختلفة، ومازال عم عبدالعاطي لم يصرّح بمكان الحريق!!

حريقاااااااااااااااااااا حريقااااااااااااااااا

البلد أصبح نصف أهلها ذاهباً والنصف الآخر يقابله

حريقاااااااااااااااا حريقاااااااااااااااا

سيذهب البيت المحترق إلى الجحيم قبل أن يذكره عبدالعاطي.

وفي حالات الزواج يحضر ميكرفونه، ويذهب أمام بيت صاحب الفرح ليعلن عن اسم صاحب النقوط والتهنئة؛ مقابل مبلغ من المال.

***

كان صوت عبدالعاطي وهو ينادي في ميكرفونه أقرب إلى الصراخ، وهو يعلن عن غرق أحد طلبة الإعدادي في البحر، وجرت كل القرية تجاه الشاطئ.. الكل ذهب بلا استثناء..

فمن يحاول إنقاذ الغريق أو على الأقل العثور على الجثة قبل أن يسحبها التيار، ومَن جرى ليرى أين ابنه، ومن ذهب ليشاهد الموقف!

وكان خيري وزينب من أوائل مَن وصلوا إلى الشاطئ..

كانوا قبل شم النسيم بأيام، ولا بد كل عام في شم النسيم أن يأخذ النيل أحد أبناء القرية..

أصبحت عادة متكررة، ولم تنكسر مرة واحدة..

كان وقت خروج المدارس، واختلط الطلبة بالأهالي.. بعض الأمهات لم يحتملن الموقف وانهرن بالبكاء، وكل منهن تبحث عن ولدها خشية أن يكون هو الغريق..

كانت زينب تسير بجوار خيري وهي تكتم لهفتها ولوعتها بعد أن قال لها خيري: إن الغريق ليس أحد ولديهما، وأنه ابن فلان...

كان ما زال القلق بقلبها؛ ولكنها خشيت أن تظهره.. وكان خيري يكذب عليها ليطمئنها.. كانت خدعة منه حتى لا تُجَن زوجته من خوفها على ولديها.

هداه تفكيره لذلك؛ فكذب عليها وهو لا يعرف، وهو أكثر قلقاً منها؛ ولكنه كان يأمل من ربه ألا يكون أحد ولديه.. فوقتها ستصبح كذبته حقيقة.. أما إن كان أحد ولديه فوقتها تكون الواقعة..

نظر خيري حوله ليبحث عن ولديه، وزوجته بجواره..

كانا ابناه قد أصبحا أكثر نضجاً ودراية، وكان حريصاً كل الحرص أن يُبعدهما عن البحر..

وأثناء بحثه عنهما سمع صوتهما ينادیانه..

عادت الحياة إليه وهو يجدهما معاً، قادمان نحوه هو وزوجته..

أخدهتهما زوجته في حضنها وهي تبكي من الفرحة..

عندها قال سامي لأبيه: الواد عبدالعزيز، عارفه؟ نزل يستحمي زي كل يوم، بس الجنية شدته.

قال له أبوه يطمئنه: إن شاء الله خير ما تقلقوش.

أمسك خيري يدي ولديْه ليعودوا إلى البيت؛ فوجد التوأمان يرفضان، ويريدان أن يشاهدا ما يحدث؛

فطلب من زوجته أن تعود إلى البيت وسيلحق بها هو والولدان..

قال سمير لوالده وهو يراقب المراكب التي تبحث عن الغريق: هما بيعملوا إيه ؟

أجابه أبوه: اللي بيعرف يعوم بينزل يدور عليه، واللي ما بيعرفش بيربط حبل في المركب ويمسك فيه وهو نازل تحت المية، عشان ما يغرقش.

عاد سمير ليسأله: طب وليه الملاية اللي على المركب بقى؟

قال لهما خيري: دي كل مركب معاه ملاية عشان اللي يلاقيه يلفه بيها، ويستر الجثة..

كان مركب عم ربيع قد بدأت حركته تبدو غريبة، وهو يدور حول بقعة معينة، ويحدثه أحد شباب القرية الذين يُجيدون الغوص؛ فعرف خيري أنهم قد وجدوا الجثة؛ فسحب أيدي ولديه لينصرفا معه، كي لا يشاهدا هذا المنظر.. وهو يحمد ربه على سلامة ولديه.

***

(٥)

مرت السنوات سريعاً، وكانت تلك المرة الأولى في حياتهما التي ينفصل فيها سامي وسمير..

كان سمير هو الأكثر حزناً ووحدة، ربما بسبب شخصيته، وربما لأنه هو من سيسافر ويترك توأمه، بالإضافة إلى حنينه إلى القرية وأهلها..

كان سمير قد التحق بالثانوية العامة، وسامي بالثانوي الصناعي؛ إلا أنهما كانا سوياً لا يفرقهما إلا ساعات الدراسة القليلة..

أما الآن.. فقد أنهى سامي دراسته تماماً، وجاء مكتب التنسيق بكلية هندسة المطرية لسمير..

وتعددت محاولات سمير للبقاء في المنصورة في كلية التربية بأي قسم منها؛ إلا أن والده رفض رفضاً باتّاً؛ فقد كان يرجو أن يرى أحد أبنائه مهندساً، وله رغبة قوية بأن يرى ابنه بتلك الخوذة..

ولم يستمع لابنه حينما أخبره أن راكبي "الموتوسيكل" الآن يرتدون خوذاً أفضل.

واضطر سمير للرضوخ أمام رغبة والده، وأنهى -في أيام متفرقة- أوراق التقديم والكشف الطبي، وطلب الالتحاق بالمدينة الجامعية..

وكان يوم السبت أول أيام الدراسة هذا اليوم الذي يشبه أيام الأعياد؛ فهو مناسبة خاصة في البيوت المصرية، بين لهفة بعض الأطفال وفرحتهم، وبين زمجرة بعضهم من الاستيقاظ مبكراً، وبين صراخ الأمهات في البحث عن المريلة أو الجوارب، وضبط الساعة البيولوجية على المواعيد الجديدة..

وكانت القرية تموج بحركة الذاهبين هنا وهناك.. وكان سمير يبكي بحرقة وهو يجهز حقيبة ملابسه، يبكي لأنه مضطر للتخلي عن توأمه وأهله وقريته، وركب سامي سيارتهم الربع نقل التي اشتراها والده له ليعمل عليها، كانت من نوع "المازدا" قبل أن يبدأ "مازدا" نفسه في التصنيع.. وكان سامي دائم الشكوى منها لوالده بأنه ينام تحتها أكثر مما يركبها!!

كان سامي وسمير في السيارة لتوصيل سمير إلى موقف سيارات "القاهرة"..

ركب سمير السيارة وهو ينظر إلى الطريق الزراعي الممتد من القرية للطريق الرئيسي، وهو يحاول أن يختزن الصورة بداخله خوفاً من أن تتلاشى..

ثم بعد وداع طويل مع سامي ركب سيارة القاهرة ليترك توأمه لأول مرة.. فيشعر بأنه ترك جزءاً منه بالمنصورة؛ ليصل إلى محطة "كلية الزراعة" ليركب منها إلى محطة المطرية، ثم ليركب ميكروباص الألف مسكن ليصل

إلى المدينة الجامعية.. وينهي باقي أوراقه المعلقة، ويأخذه الموظف مع طالبين آخرين؛ ليكونوا الثلاثة في حجرة معاً..

لم يهتم بهما سمير، ولم يكن في حالة مزاجية للتعرف على أحد

ولم يخاطبهما إلا بعد فتح باب الغرفة من قِبَل الموظف؛ فقد قال لهما سمير: لو مفيش مانع يا باشمهندسين، ممكن آخد السرير اللي جنب الشباك؟

كان يشعر وكأنه محبوس وكعادة المسجونين يتعلقون بشباك السجن أو شباك سيارة الترحيلات..

نظر الطالبان لبعضهما ثم قال أحدهما له: عادي جداً يا باشمهندس..

وضع سمير حقائبه بجوار سريره، ثم أخرج لهما قفلاً وله ثلاثة مفاتيح، وأعطى لهما مفتاحين قبل أن يأخذ أحد المفاتيح، وقال لهما: لو خرجتوا ابقوا حطوا القفل ده على الباب...

ثم نزل إلى الكلية..

كان يشعر بعزلة رهيبة لأول مرة في حياته..

لم تبهره القاهرة بمترو أنفاقها أو مبانيها أو طرقها؛ بل بالعكس كان يشعر بحزن بالغ وضيق شديد،

كان يشعر بتلك المباني الخرسانية وكأنها تخنقه وتحجب عنه السماء، كان يشعر بأن تلك الطرق المرصوفة لها سبب بطريقة أو أخرى في نقص الأكسجين الذي يشعر به..

كان يفتقد اللون الأخضر الذي يغطي كل الطرق في قريته.. يفتقد الطرق الترابية.. يفتقد التراب

يفتقد هواء قريته المحاطة بالنيل من جهة وبالأراضي الزراعية من الجهات الأخرى..

كان يفتقد النظر إلى القمر، ولهذا بعد عودته إلى المدينة الجامعية لم يذهب إلى غرفته؛ بل صعد خلسة إلى سطح المدينة الجامعية التي تُلاصق مبنى كليته..

صعد ليلاً في أول ليلة له بالمدينة ليستلقي على ظهره ناظراً إلى السماء التي لا يرى منها إلا ما تسمح به تلك الأبراج..

كان يستلقي على ظهره ويصوب نظره إلى السماء حتى لا يرى أية مباني عن جانبيه.. كان يريد النظر إلى السماء دون أي إضافات "بشرية".

وفجأة وجد بجواره رئيس الحرس النقيب محمد الجميل، الذي علم بصعود أحد الطلاب إلى سطح المبنى؛ مما جعله يشكّ في تعاطي هذا الطالب للمخدرات..

صعد خلسة إلى السطح ليفاجأ بسمير.. ومما أثار دهشته أنه وجد سمير يبكي بحرارة..

عندما رآه سمير فزع للوهلة الأولى، ثم هدأ عندما وضع النقيب يده على كتف سمير في رفق وجلس بجواره مفترشاً الأرض مثل سمير..

قبل أن يسأل سمير: مالك يا باشمهندس؟

حاول سمير أن يجيبه؛ إلا أن دموعه منعت الكلمات من الخروج..

ربت النقيب على كتفه مرة أخرى قبل أن يقول له: ياه ده الموضوع كبير بقى، طب ممكن تفضفض؟

حاول سمير أن يُخرج بعض الكلمات على الرغم منه وهو يقول: أبداً والله يا فندم..

وبعد إصرار النقيب، حكى له سمير عن توأمه والألم الذي يشعر به نتيجة فراقه.. وحكى له عن شوقه إلى قريته وإلى النيل الذي تطل عليه قريته مباشرة..

رد عليه النقيب: ده حال الدنيا يا صاحبي، ولازم تعوّد نفسك عليها، وكويس إن أنا اللي طلعتلك، لو حد تاني شافك من الموظفين أو الطلبة وأنت بتعيط مش هتخلص من سخريتهم..

قلت لي منين بقي؟

أجابه سمير: من المنصورة.

قال له النقيب محمد وهو يغمز بعينه اليسري: طب ما تشوفلنا عروسة بقى.

ضحك سمير وهو يقول له: مش هزعل من مغزي كلامك.

بعد الحوارات المتبادلة بين سمير والنقيب محمد الجميل، بدأ سمير يشعر براحة نسبية ووقتها نهض النقيب من جلسته على الأرض واقفاً وهو يمد يده إلى سمير قائلاً: ما تيجي تكمل (بربرة) تحت.

وانفجر سمير ضاحكاً وهو ينهض.

***

كان سمير يسكن في المدينة الجامعية في الدور الثاني، وكانت غرفته تُطِل على شارع منشية التحرير، وكان زميلاه في الغرفة من الفيوم: "عاطف محمود" و"وائل مصطفى"..

كانا صديقين من أولى ابتدائي إلى الجامعة وجمعهما التنسيق بهندسة المطرية، وهاهما مع سمير في نفس الغرفة..

عاطف محمود كان شاباً مثالياً: لا يدخن، لا يشرب الشاي، لا يشرب القهوة، لا يتلفظ بأية لفظة خارجة..

كـان أبيض يميـل للنحافـة قليلاً، أسـود الشـعر ناعمـه، ويمشـطه على إحدى جانبي الرأس.. كان منظماً إلى ما لا نهاية.. كان يكوي كل ملابسه حتى الداخلية، وعندما استفسر منه سمير عن هذا؛ أخبره بأن هذا يساعد على قتل الميكروبات العالقة بملابسه..

أما وائل فقد كان على النقيض تماماً.. كان أقصر من عاطف، وكان أجعد الشعر، يحمل وجهه سمرة المصريين الشهيرة، وكان يدخن بشراهة.. كـان تقريبـاً لا يحتـاج لقداحـة؛ فهـو يشـعل السـيجارة مـن الأخـرى قبـل انتهائها.

كان يدخن كل شيء يمكن تدخينه ولا يمكن تدخينه؛ مهملاً لأقصى درجة، ولا يتحمل أية مسئولية..

كان يستيقظ قبل موعد غلق أبواب المدينة الجامعية مساءً لينزل ليشتري متطلباته من أكل وسجائر؛ فقد كان لا يستهويه أكل المدينة، وكانت أكثر صفة أزعجت سمير من وائل هذا أنه لا يرتدي أية ملابس داخلية؛ فهو لا يطيقها البتة، وعنما سأله سمير عن السبب.. أجابه بأنه يشعر وكأن تلك الملابس حبل مشنقة، ووقتها ردّ عليه سمير: إذا كان كده، فأنا معاك.. ما تلبسش النص الفوقاني إنما التحتاني إيه علاقته بالشنق؟

أجابـه وائـل مبتسـماً: يا با شمهنـدس ده مركـز الثقـل، وبيـأثر في عمليـة الشنق.

رد عليه سمير في جدية: يا باشمهندس بجد ما ينفعشي تقلع كده ملط.

وائل: ليه؟ إديني سبب واحد مقنع.

نظر سمير إلى عاطف: احضرنا يا باشمهندس.

عاطف في رزانة: والله يا حبيبي أنا غلبت معاه.

- يا حبيبي، وبعد ما غلبت معاه إيه النتيجة؟

أجابه عاطف وهو يشير إلى وائل العاري تماماً: النتيجة زي ما انت شايف.

أجابه سمير: بس أنا عمري ما أوافق ع النظام ده!

وافقه عاطف: وأنا معاك.

سمير: يبقي إحنا أغلبية.. إيه رأيك يا عم العريان؟

أجابه وائل مازحاً: مَداد يا سيدي العريان مداد، ثم أضاف: خلاص يا جماعة.. مش هغيّر إلا وإنتو بره، ولو إنتو موجودين هروح الحمام.. بس بشرط.

نظر إليه الاثنان في اهتمام..

فقال لهما: هدخن جوه الأوضة عادي.. مش كل سيجارة هشربها تقولولي اطلع بره.

نظر عاطف إلى سمير قائلاً: ماشي ياباشمهندس.. جينا عليه مرة.. ونجي علينا مرة.

وافق سمير على هذا الاتفاق.

مر الأسبوع الأول سريعاً على سمير وسط انشغاله في معرفة أماكن محاضراته، وأين مسجد الكلية وأرقام المدرجات وأسمائها، وأسماء الدكاترة ومتطلباتهم من أدوات وكتب وملازم.. وتعرف على العديد من الأصدقاء رويداً رويداً؛ بسبب اختلاطهم في المحاضرة أو السيكشن أو المسجد، أو بسبب الأحداث الخطيرة التي تمر بها البلاد..

إلا أن عاطف ووائل ظلا لهما المكانة الكبرى في نفسه، وأصبح الثلاثة لا يفترقون؛ بل وأصبح وائل تحت ضغطهما يستقيظ مبكراً ليلحق بمحاضراته.. وقد اشتهر الثلاثة في الكلية والمدينة الجامعية بالفيومية؛ فلقد ظن الجميع أن سمير من الفيوم أيضاً لارتباط الثلاثة معاً.

وكان سمير كل يوم يتصل بأهله أو يتصل به أحدهم، وكانت الأيام تسير عادية وطبيعية؛ شاب يشعر بالوحدة في فراق أهله، ثم يبدأ يعتاد الوضع الجديد.. ولكن هيهات!!

***

(٦)

كان سامي أقل إحساسًا بالوحدة من سمير، أقل تأثراً بفراق أخيه..

ربما بسبب شخصيته، ربما لأنه بين أهله وجيرانه وقريته، وحياته كما هي لم تتغيير..

المهم أن سامي لم يبدُ عليه الحزن الشديد مثل أخيه.. كان سامي يركب السيارة ربع النقل التي اشتراها والده بعد توفيره للمال، وكان والده قد استطاع -بعد مساعدة أحد أقربائه- أن يأخذ رخصة توزيع أسطوانات الغاز؛ فكان سامي يأخذ السيارة ويذهب إلى محطة غاز طلخا ليملأ أسطوانات الغاز، ويعود ليبيعها في قريته.. ولم يكن ذهابه إلى طلخا مع أصحاب المستودعات وموزعي الأسطوانات والسائقين مشكلة كبيرة؛ بل تعامل معهم وكأنه في الشارع منذ فترة.

ففي بدايات ذهابه هناك حدث شجار بينه وبين أحد السائقين على أولوية الدخول للمحطة، وعندما سبّ هذا السائق سامي بأمه، نزل إليه سامي، وانهال عليه ضرباً وركلاً، ثم ربطه في سيارته بالحبل الذي يربط به أسطواناته، واتصل بأصحابه ليأتوا إليه على وجه السرعة؛ فأتت إليه عصابته

الخاصة، وعلى رأسهم صديقه ياسر المعصراوي؛ هذا الشخص الذي ما إن تراه حتى يأتي إليك إحساس بأنه مجموعة من الأشخاص تم دمجها سويّاً.. شخص أعطاه الله قوة بدنية هائلة..

نزل ياسر ورفاقه من السيارة إلى سامي، هذا يرفع سيفاً وآخر يحمل خرطوشة.. وتوجه المعصراوي إلى سامي قائلاً بصوت كأنه حشرجة قادمة من الجحيم نفسه: فين ده اللي اتهبل في نافوخه واتخانق معاك.

ولم ينتظر المعصراوي إجابة من سامي؛ فقد وقعت عيناه على الشخص المربوط في السيارة..

كان وقتها قد بدأ السائقون في محاولة فك الأسير بعد جدالات مع سامي الذي خلع ملابسه العلوية كلها كعادته في أوقات خناقه.. وشاهراً مطواته..

رآه المعصراوي فاندفع إليه وجسده كله يترجرج، اندفع إليه شاقاً الصفوف وملوّحاً بذراعيه ليصيب مَن يعترض طريقه، ومن كان يقف في طريقه يجد نفسه طائراً لمسافة كبيرة..

وصل إلى المربوط وانهال عليه ركلاً وضرباً، وهو يقول: بترفع عينك في سامي ياض، دانت هتموت..

وسيل من الشتائم المعتبرة..

لو جلس ياسر فقط على الرجل كان ذلك كفيلاً بأن يجعله يندم على اليوم الذي أتى فيه إلى محطة الغاز.. وذهب إليه سامي محاولاً تخليص الرجل من يده؛ فقد خشي أن يقتله المعصراوي وهو لا يدري من شدة غضبه..

كان سامي يود بأن يبعث رسالة لهم، وهي أنه ليس بالغِرّ الساذج.. وقد وصلت إليهم الرسالة كاملة.. فليس هناك داعٍ إذن لجريمة قتل متعمد تحت وطأة هذا الخرتيت الهائج.

وقف سامي حائلاً بين المعصراوي وبين الضحية قبل أن يفترسه بأسنانه.. وأخذ سامي ضحيته واختلى به جانباً، وقال له: متزعلش مني.. بس أنا اللي يجيب سيرة أمي أدبحه.. عموماً حصل خير.. ولو تحب أبوس راسك أبوسها.

نظر إليه المهزوم في انكسار قائلاً: لا لا.. حصل خير.

طيّب سامي خاطره؛ وذلك لإنهاء المشكلة وعدم ترك ذيول لها ليوم آخر، أو انتقام غشيم من هذا الشخص بضربة غادرة من الخلف لا يكون لها حذراً.. وسامي كان لا يحذر إلا من ضربة الغشيم أو الجبان؛ فضربة أحدهما كفيلة بأن تقتلك.. الغشيم لا يعلم أين يضرب، والجبان يضرب بيد مرتعشة وعين مغلقة.

ثم سار الأمر طبيعيّاً بعد ذلك؛ فأصبح لسامي وضعه الخاص بين السائقين.. كان لا يريد أن يأخذ شيئاً من أحد ليس ملكه، وأيضاً لا يريد من أحد أن يأخذ منه ما يملك إلا برضاه

***

وبرغم أن السيارة أصبحت مصدر رزق الأسرة؛ فإن لها أيضاً مساوئها؛ فقد أصبح سامي أكثر عُرضة للتعامل مع أشخاص مختلفين؛ سائقين، أو عابري طريق، أو زبائن.. أشخاص لا يعرفون شخصيته، ولا يعلمون طبيعته.. أشخاص يشعر كل منهم أنه الأقوى والأكثر شجاعة وإقداماً..

وهو لا يرضي بذلك.. هو مقتنع أنها غابة؛ تكون أسداً فيها أو نمراً أو ثعلباً.. لا بد أن تجيد القوة أو الدهاء.. لا بد أن تكون مفترساً؛ وإلا أصبحت فريسة سهلة للمفترسين.. مما يضطره كثيراً للصدام..

كانت مشكلته في عصبيته المفرطة، وكأن صفة الصبر أخذها أخوه كلها، وتركه بنفاذ صبر..

ففي أحد الأيام -أثناء عودته من محطة الغاز ليلاً- تشاجر هو وأحد السائقين على أولوية المرور..

مشكلة عادية تحدث آلاف المرات يوميّاً.. تحدث مع الجميع بلا استثناء؛ ولكن سامي ليس كالجميع..

لن يدع هذا السائق يسبه هكذا.. لن يتركه بعدما أخرج رأسه من شباك سيارته وصوته المرتفع يكاد يجنّ منه سامي.. لا بد من تأديبه وتلقينه الدرس.

ونزل سامي إلى سائق الميكروباص، وما إن رآه السائق قادماً نحوه، حتى قال له السائق في تهكم: لا والله راجل...

وهنا اسودت الدنيا أمامه.. وجذب السائق من السيارة وبدأ بضربه والتنكيل به..

وللحظ، كانت السيارة من قرية مجاورة.. وكل الركاب من نفس القرية.. وهنا عرف سامي سر شجاعة هذا السائق؛ فهو مع أكثر من عشر رجال من قريته يعرفونه، وسيتضامنون معه..

وهنا أدرك سامي الورطة القادمة.. فقد بدأ الركاب في محاولة مساعدة ابن بلدتهم، والنيل من سامي الذي ما إن رأى أنهم قد يتمكنون منه؛ حتى غيّر الخطة..

سامي لن يترك أحداً يتمكن منه؛ إلا عندما يصبح جثة هامدة.. ففي لحظة واحدة صعد إلى صندوق سيارته، ووقف على الأنابيب وهو يحمل أنبوبة، ونزع جلدتها، وأخرج ولاعة من جيبه وفتح الأنبوبة لتتحول إلى قاذف لهب..

لهيب من النيران الشديدة.. صوبه سامي ناحيتهم، وهو يلوح بالأنبوبة يميناً ويساراً..

وهنا صرخ أحد الركاب: اجروا بسرعة، ده باين عليه مجنون.. ده واقف على الأنابيب، وولع أنبوبة.. العربية هتنفجر! اجروا...

جرى الركاب سريعاً إلى سيارتهم، وحملوا سائقهم حملاً، ووضعوه على عجلة القيادة، وفروا هاربين، وسامي يتبعهم بنيران أنبوبته الغاز.. وعيناه تكادان تنافسان الغاز اشتعالاً.

كانت تلك نقطة ضعفه؛ نفاد صبره.. غضبه.. كرامته التي لا يحتمل أن يطئها أحد..

كان يحاول أن يتمالك أعصابه كثيراً؛ ولكنه لا يلبث إلا أن يجد نفسه وقد تملكه شيطان الغضب

***

(٧)

علي استراحة المقابر المجاورة للبحر المحاطة بشجر الفيكس من كل اتجاه كحديقة جميلة، والتي قام بتهيئتها شباب القرية؛ ليجلس الأهالي بداخلها أثناء مراسم دفن أي شخص من القرية، كان يجلس سامي والمعصراوي، وإذا بمركب يأتي ويربطه صاحبه في شجرة على الشاطئ ويُلقي السلام عليهما.

فيقول سامي: وعليكم السلام يا حاج.

الرجل: معلشي يا رجالة ما تعرفوش بنّا هنا كويس؟

سامي في اهتمام: هتبني إيه يا حاج؟

الرجل: فرن بلدي إن شاء الله.

سامي: ده انت حظك حلو.. أنا بنَّا.

المعصراوي في دهشة: إيه؟

سامي: ميهمش يا معصراوي.. عارف إنك تعبان بس الراجل مزنوق.

المعصراوي: يا سامي أنت بـ...

يقاطعه سامي: خلاص بقى عشان خاطر الحاج.

الرجل موجّهاً كلامه إلى المعصراوي: يا اسطى الله يجبر خاطرك، ده أنا ما صدّقت لقيتكم.

المعصراوي: يا ريتك ما لقيتنا.

سامي ينظر إلى المعصراوي قائلاً: ما خلاص بقى خلصنا.

ثم يردف قائلاً: إجري هات المسطرين..

يقول المعصراوي له في استفزاز: وأجيبه منين بقي يا اسطى؟!

سامي في لا مبالاة: اتصرف، وأنا وعمك الحاج هنستناك في المركب.

ثم سحب الرجل ليجلس به في المركب قائلاً: تعال يا حاج نقعد تحت نستناه.

مضى المعصراوي وهو يبرطم بكلمات غير مفهومة معترضاً على سامي الذي سيذهب إلى ديسط ليبني فرناً بلديّاً، وهو لا يعرف كيف يمسك المسطرين!!

ذهب المعصراوي إلى أحد البنّائين وأحضر منه المسطرين، ثم ذهب إلى سامي الذي ينتظره مع الرجل وقال له: اتفضل يا اسطى المعلمين كلهم...

أخذ سامي منه المسطرين وركب مع الرجل في مركبه قبل أن ينظر إلى المعصراوي متسائلاً: هو انت مش جاي ولا إيه؟

أجابه المعصراوي وهو يهز رأسه: لا.. ما أنا غيّرت المهنة خلاص وهشتغل في الكهربا.

سامي يبتسم غصباً عنه: يلا تعالى يا معلم بلاش رخامة بقى.

المعصراوي قائلاً: يا عم أنا زهقت من أم المعمار ونفسي اتكهرب بقى.

سامي: والله لتيجي.

الرجل: صاحبك حلف، ما توقّعش حلفانه بقى.

المعصراوي للراجل: أنت طيب أوي يا حاج، ونيتك حلوة، وربنا بيديك على قد نيتك.

وركب المعصراوي المركب الذي غاص لنصفه بالماء فور ركوبه؛ مما جعل الرجل ينظر إليه؛ فقال له المعصراوي: تحب تموت غرقان ولا محروق بالفرن بتاعك؟

فلتت ضحكة من سامي غصب عنه وهو يقول: فال الله ولا فالك يا راجل.

***

وصل سامي والمعصراوي إلى بيت الرجل ووجدوا معجنة من الطين وطوبًا أحمر، وطوبًا نيئاً؛

فمال سامي على أذن المعصراوي قائلاً له: هو ليه فيه نوعين طوب؟

المعصراوي وهو يرجع بجسده للوراء: اوعى تكون منتاش عارف يا سيد المعلمين.

سامي: أهو أنا شفت عشرين فرن قدامي وهم بيتبنوا، ومفيش مرة كلفت خاطري أركز وأشوف فكرتهم إزاي.

المعصراوي: وتفتكر ده وقت الندم.

سامي: متأخر الندم ده صح؟

المعصراوي: يعني أنت اللي شاغلك بس هي الفكرة.

سامي: أظن أنها نفس فكرة العجلة.. تبص لقدامك وماتبصش للبدال.

المعصراوي ضاحكاً: الله عليك يا سيد المعلمين.. وإحنا بقى هنعمل لهم فرن ببدال؟

سامي: أنت مش مشجعني خالص.

المعصراوي: أنا عارف إني واقف ضد طموحك إنك تكون مهندس معماري، يا عم تعالى نروّح...

تجاهله سامي وهو يقول للرجل: بس كويس إنك جايب الطوب الأحمر والطوب الني.

قال له الرجل: وكمان الصاجة.

سامي في دهشة: صاجة؟

قال له المعصراوي: تصور إن كمان فيه صاجة؟

ثم مال على أذنه قائلًا: الصاجة دي اللي بتبقى في نص الفرن ويتحط عليها العيش.

سامي: شفت بقى ربنا مسهلها خالص إزاي؟

المعصراوي: خالص خالص!! ده أنا حاسس إني هعملها على نفسي من الإسهال..

سامي للرجل متجاهلاً المعصراوي: معلش يا حاج عايز أشوف أقرب فرن بلدي عندكم هنا عشان أعرف نظام ديسط إيه في الأفران.

الرجل: وهو كل بلد لها نظام؟

المعصراوي وهو يضحك: أوومال!!

الرجل: تعالى أوريك فرن جنبنا أهو في الشارع.

سحب سامي المعصراوي من يده وذهب مع الرجل ونظر إلى الفرن، وهو يقول: الإخوان رجّعونا تاني للأفران البلدي.. قبل أن يقول للمعصراوي بصوت منخفض: آه الطوب الأحمر في العين اللي تحت اللي بيتحط فيها

الحطب والقش عشان يتحمل النار، وبعدين الصاجة وبعدين الجزء الفوقاني ده اللي بيتحط فيه العيش بس هي أصعب حتة بتاعت الدوران ده.

المعصراوي: وهتعرف تعمل الدوران ده؟

سامي: هحاول..

المعصراوي: كام محاولة يعني؟

تجاهله سامي وهو يقول للرجل: يلا بينا يا حاج.

ذهبوا إلى مكان الفرن المزمع بناؤه، وبدأ سامي في العمل.. وكم كان الكلام أسهل كثيراً من الفعل..

فقد وصل سامي لأربعة سطور من البناء وعندما حاول البدء في عمل دوران فشل

حاول كثيراً.. وفشل.. وبدأ يشعر بأنه لا بد أن يعيد البناء من الأول ليبدأ بالدوران بطريقة أخرى.

واقترب من الرجل قائلاً: بالحق يا حاج.. إنتو عايزين الفرن للعيش؟ ولا لشوي السمك؟

قال له الرجل مستغرباً: للعيش ولشوي السمك وللمعمّر.. لكل حاجة يا معلم.

هز سامي رأسه في أسف مصطنع قائلاً: ما قلتش ليه يا حاج من الأول، ده أنا عامله للخبيز بس...

ثم دفع الأسطر التي بناها فانهارت.

وقال للرجل: كده يا حاج؟ هضطر أبدأ من تاني.

وهنا اندفع المعصراوي إلى يد سامي قائلاً: أبوس إيدك نمشي.

الرجل: تمشي فين يا اسطي؟

المعصراوي وهو يجر سامي جرّاً: هنروح نصلي الأول يا حاج في الجامع عشان ربنا يبارك لنا.

مشى المعصراوي وهو يسحب سامي من يده وسامي يقول له: طب وربنا كنت خلاص قربت من الفكرة.

المعصراوي: قربت؟ كمان قربت؟ يعني مش وصلت؟ مش فاهم إيه الفكرة إن عربيتك واقفة أهي ممكن تشغلها وجاي تعكعك في الطينة..؟

سامي: مش قصة فلوس يا بني، ده موضوع مغامرة، كنت عايز أعيش المغامرة دي.

نزل المعصراوي إلى المركب التي تخص صاحب الفرن وهو يفكها قائلاً لسامي: معلش بقى أنا حرمتك من المغامرة دي، متبقاش تنسى لي القسوة دي.

سامي: وكمان هناخد مركب الراجل نروح بيها؟

المعصراوي: نيته بقي، وهو هيبص من البر التاني هيلاقيه مربوط في بلدنا وييجي ياخده، ولما هيسأل علينا ويعرف مواصفاتنا اللي هيقابله هيقول له اوعى تروح لهم تاني ليضربوك.

سامي: أنت بقيت مفتري أوي يا معصراوي.

المعصراوي: معلش يا اسطي أصل شغل الأفران ولع في قلبي.

***

(٨)

ذهب سامي لمقابلة أخيه في موقف المنصورة، وفور رؤيته أخذه في حضنه وقبّله في كتفه الأيمن فقط كعادته، ثم ناوله مفاتيح السيارة الربع نقل قائلاً له: سوق أنت.

قال له سمير: ولو أي كمين قابلنا ولقانا توأم؟ مش هينفع أطلع رخصتك.

قال له سامي: اركب بس.

ركب سمير على عجلة القيادة وناوله أخوه من الشماسة رخصة قيادة باسمه وبطاقة رقم قومي..

استغرب سمير وهو يسأله: عملتها إزاى دي ؟

سامي: أنت عندك الورق اللي ختمه من الكلية عشان تغيّر بطاقتك من طالب لطالب بكلية الهندسة..

أنا بقى أخدت الورق واتصورت وطلّعت بدل فاقد باسمك، والورق مختوم وجاهز، وأخدت البطاقة وطلّعت الرخصة برضه.. أصلاً اليومين دول بتدخل تاخد الرخصة بكل سهولة.

سمير: طب كويس والله وفّرت عليّ.

سامي: لا.. انسي يا حبيبي، طلّع لك أنت بدل فاقد منهم؛ لكن دول بتوعي؛ لأني مش هروح الجيش

ولو أي كمين قابلني؛ فأنا أنت.. أنا طالب وخلاص، وبعد السن القانوني ابقى أعمل مصالحة معاهم.

سمير: اوعى تحبسني.

مط سامي شفتيه قائلاً: لا ما أظنش إني هحبسك؛ لكن الشيطان بيوزني أروح الشهر العقاري أبيع كل حاجة باسمك لي.

ضحك سمير من قلبه: وأنا أروح أعمل بدل فاقد ليك وأرجعهم تاني.

سامي في جدية: أنا والله لو لقيت لك مزاج في كل أملاكي أديها لك بطيب خاطر، وأنام أنا في الشرع يا حبيبي.

ربت سمير على كتفه وهو لا يرفع نظره عن الطريق: ربنا يبارك لي فيك يا حبيبي.

- تعرف إن أصعب مشاكل الورث لما يبقوا أخين اتنين بس؛ لأن أي حد تالت بيدخُل؛ واحد فيهم بيحسبوا على التاني.. أما لو ٣ إخوات أو أكتر؛ أي أخ هيدخل يصلح بينهم مفيش واحد فيهم هيقول له أصله قريبك عني، أو إنتو نسايب..

- أنا بقى يا حبيبي مش بس هتنازلك عن حاجتي؛ لا ده أنا ناوي إن شاء الله لما ربنا يكرمني أعمل لنا أحلى بيت فيك يا "كفر".

فجأة مالت سيارة ميكروباص على سيارتهما بطريقة جنونية؛ مما أفزع سمير واضطره أن ينحرف لأقصى اليمين؛ فكادت السيارة أن تسقط في الترعة الموازية للطريق؛ لولا أن تصرف سامي بسرعة ودفع عجلة القيادة للشمال في عنف.

وقال سائق الميكروباص وهو يخرج رأسه من شباكه: ما دام على قدك يبقى تاخد جنب..

كانت تلك كلمة السر التي أشعلت النار في رأس سامي؛ فوثب خارج السيارة وهي مسرعة من فتحة الشباك المجاورة له، ومشى على كابينة السيارة قبل أن يدخل من شباك الآخر بجوار أخيه

وهو يقول له: روح أنت هناك.

ثم تولى القيادة وربت على تابلوه السيارة وهو يقود وعينيه تلمع: يلا يا وزة هنتشاقى شوية..

ثم ضغط دواسة الوقود لآخرها.. وأخرج موبايله وطلب المعصراوي قائلاً: بسرعة ألاقيك على الكوبري، فيه عربية ميكروباص "تويوتا" بيضا، نمر دمياط، وعليها شنط.. وقفها لي.

فسأله سمير: وهو إحنا مش هنلحقها.

قال له سامي: مستحيل نلحقها، دي بخاخة موديل السنة، وعربيتكم من أيام فيلم رد قلبي.. كانت برة السيما وهي بتتحرق.. إحنا هنقفل الطريق عليه؟

سمير: ما أنت متعود على قطع الطريق.. كل ما أكتب على النت "كفر البرامون" يجي لي خبر أهالي كفر البرامون يقطعون طريق دمياط.

سامي: مسيّطكم أهو.. أي خدمة.

سمير: طب وأنت هتعمل إيه مع السواق؟

سامي: هَزه أحسن من غزه.

سمير: يعني إيه؟

سامي: هتشوف دلوقت.

هو طبعاً دلوقت شافني وأنا بنط من فوق الكابينة ووصله إحساس إن أنا أهبل ولازم يطفش مني؛ خليه مصدّق نفسه.

سمير: مش ممكن يهرب من المعصراوي.

سامي في ثقة: مستحيل ثم نظر لأخيه وهو يلاحق السيارة وأردف: بس أنت من إمتي بتشجعني على الشرّ.

قال له سمير في غضب: حرق دمي أوي.. وفزعني لما لقيت الترعة في وشي.

قال له سامي: عرفت بقى إن العيلة اللي مفيهاش صايع حقها ضايع.

- وأنت خلاص بقيت بتقول عليها ترعة مش جنابية

أجابه سمير: هي ترعة؛ لكن عشان "جنب" الطريق؛ فالفلاحين زيك بيقولوا عليها "جنابية".

وقبل أن يجيبه سامي كانوا قد وصلوا إلى كوبري قريتهم، ووجدوا المعصراوي يقف أمام السيارة التي وصفها لها سامي.

كان السائق قد وقف للتوّ وهو يسأل عن سبب منعه من المرور.. جاء سامي بسيارته بجوار الميكروباص تماماً، وجعلها على يمينه، ثم أغلق موتور سيارته وهي بلا غيار، وفتح الباب وتركها تسير لمسافة عشرين متراً قبل أن تقف وما يزال سمير فيها؛ أما هو فقد نزل بجوار السائق تماماً مما أثار رعبه هو وركابه وقد فهموا اللعبة.

وجاء سمير من بعيد يركض ووقف بجوار أخيه الذي مسك السائق من قميصه بيده اليسري وأخرج في لحظة مطواته وفتحها في الهواء وذهب بها في سرعة نحو وجه السائق، الذي أمال وجهه في سرعة وخوف..

وتوقف سامي بالمطواة عند وجهه ولم يصبه؛ إلا أنه ضربه بظهرها على رأسه وقال له: بلاش غشم مع السواقين.. فيه سواق على قده.. حافظ على نفسك وعليه وعلى ركابك.

ثم أشار لأخيه متسائلاً: كدة تمام؟

ابتسم أخوه في رضا قائلاً: هزه أحسن من غزه.

فأشار إليه سامي قائلاً: يلا سماح المرادي.

ثم انصرفوا.

***

بعد الفجر بقليل إذا بصراخ سيدة متصل لا ينقطع..

فزع خيري وزوجته قبل أن ينتفض خارجاً قائلاً: استر يا رب.

وخرج ليجد أن بيت هياتم يشتعل بالنيران من أعلاه.. كان بيتاً خرسانيّاً من الدور الأول؛ إلا أن الدور الثاني سقفه كله من القش والخشب.

وكانت هياتم تصرخ وهي تهتف: "إلحقوني يا بلد.. إنجدوني يا بلد".

وهنا كان سمير وسامي قد استيقظا على إثر الجلبة.. كان سامي مرتدياً طاقماً داخلياً، واندفع كالصاروخ إلى الدور الثاني؛ فاندفع خلفه أخوه في سرعة.. وبعدهما أبوهما وبعض الرجال في سرعة.

كان سامي أول من صعد وعرف أن السبب هو فرن الغاز الذي ربما قد نسيته هيام؛ فأسرع إلى الأنبوبة التي تلتف حولها النيران، وأغلق محبسها وخلع الخرطوم في حركة عنيفة، قبل أن يرفعها على كتفه وينزل مسرعاً خارج البيت قائلاً لمن حوله: "ابعدوا عن الأنبوبة بسرعة..".

قبل أن يضعها أرضاً، ويفتح محبسها لإخراج الغاز الساخن منها الذي كان على وشك الانفجار، كان صوت عم عبد العاطي يصرخ في ميكروفونه:

حريقاا حريقاا

وربما بعد ساعة يذكر اسم صاحب البيت.

كان سامي قد عاود الصعود مرة أخرى ليساعد الآخرين في إطفاء الحريقة.. كان القش وجبة سهلة وسريعة للنار التي ما إن تقترب منه حتى تأتي عليه..

كان سمير يساعد بعض الناس في سكب المياه التي تحملها النساء..

وفجأة.. سقط سمير.. لم يتحمله السقف.. سقط وسط كومة من القش؛ فسقطت فوقه بعض الكومات المشتعلة.. لم يكن يظهر منه شيء.

صرخ سامي بجنون: سمير.

وقذف نفسه فوق تلك البقعة التي سقط فيها توأمه.

وبرغم أن الحريق كان هائلاً، وبرغم أنه كان من الواضح أنه لن يستطيع السيطرة عليه إلا المطافي أو أن يأتي على البيت كله؛ إلا أنه فور سقوط سمير واندفاع سامي؛ أصبح كل رجال القرية ونساؤها في تلك البقعة التي سقط فيها التوأمان.. و ما لبثوا إلا نصف دقيقة وكان كل القش والخشب مقذوفًا من أعلى.

وظهر سمير وهو مغمي عليه.. سليم لم يمسه شيء؛ لأن ما أحاط به كان القش الذي لم يشتعل..

كانت إحدي السيدات ما زالت تحمل فوق رأسها جردلاً به ماء لم تسكبه بعد على الحريق؛ فما إن رأت سمير مغمى عليه بين أيديهم حتى قذفت فوقه الماء الذي تحمله..

فانتفض سمير وهو ينظر إلى وجه أخيه؛ قائلاً: أنا كويس متقلقش إسندني بس، عايز أروّح..

مشى سمير بجوار سامي وهو مسنود عليه، إلى أن وصل بيته، وتمدد على تلك الأريكة الخشبية في مدخل بيته وهو يغلق عينيه إجهاداً.

جلس سامي بجواره وأمسك بيده قبل أن يقول: ما لك يابني؟ متقلقنيش عليك!

أجابه سمير في إرهاق: لا.. أنا كويس خالص.

سأله سامي في تأثر: طبعاً كانت صدمة عليك

قال سمير وهو يلوّح بيده: ولا حسيت بحاجة.. هوب لقيتني بقع، وهوب لقيتني بفتح عيني عليك

سامي: بلاش اندفاع بعد كده.. أنت بتاع دماغ وسيب لي أنا الكلام ده.

سمير: يعني أسيب البيت بتاع المسكينة ده يولع؟!

سامي: مقلتش كده، بس بلاش تبقى في قلب المعمعة، ماشي؟

سمير: حصل خير يا سامي، والحمد لله جت سليمة.

هنا دخلت هيام مسرعة ورأت سمير ممدداً على الأريكة؛ فضربت صدرها بيدها في جزع، وهي تقول: ألف اسم الله عليك يا حبيبي.

قال لها سمير: الله يسلمك يا خالة، والحمد لله جت سليمة.

قالت له هياتم، وهي تضع يدها على رأسه: والله يا بني أنا جيت لك قبل ما أشوف بيتي إيه جرى له.

قال لها سامي مقاطعاً: حطي إيدك هنا على رأسي كده، أنا كمان كنت بطفي..

فلتت ضحكة من هياتم بالرغم منها، وهي تقول لسامي: اتهد يا واد، إحنا في إيه، وأنت في إيه.

قال لها سامي: بقى أخويا نازل أجازة يروح فيها؟

هياتم: ألف كفى الله الشر، إن شاء الله أنا، ده أنا كنت مسامحشي نفسي والله.

سمير: الحمد لله حصل خير، وقومي يا خالة شوفي بيتك، واطمني على حاجتك.

انصرفت هياتم في حين قال سامي له: شد حيلك كده، وقوم عشان هفسحك فسحة حلوة.

***

(٩)

في نهر النيل، وفي مركب عم ربيع الصياد

كان سامي ممسكاً المجداف ويتجول في النيل بالمركب، وأخوه جالس أمامه: اوعى تكون سارق المركب يا سامي زي عوايدك!

سامي: يا عم شلّيت أمي، وربنا أبداً.. أنا دايماً باخده واتفسح فيه، وهو عارف..

سمير: بحاول أصدقك، ومش قادر.

سامي: يا عم سيب نفسك بقى ده أنا بفسّحك عشان تنسى اللي حصل في الحريقة..

سمير: يعني يا أموت محروق، يا أموت غرقان؟!

سامي: يخرب بيت نكدك، يا ابني أخوك سمكة، متقلقش وأنت معاه.

سمير: أنا اللي قالقني إنك معايا، وخايف تعمل في البحر حركة من بتوعك نغرق إحنا الاتنين.

سامي: آه، وأبوك يموت بحسرته ما هو مفيش غيرنا..

سمير: على رأيك ده فعلاً يموت فيها.

سامي: بالحق يا سمير..

سمير: خير؟

سامي: عمرك ما سألت نفسك إحنا اتنين بس ليه؟

سمير: أمال كنت عايزنا أربعة؟

سامي: لا ما أقصدش.. قصدي يعني جابو مرة وعلى كده.

سمير: قدر ربنا بقى.

سامي في خبث: كده ضميرك مستريح..

سمير: مش فاهمك لأول مرة..

سامي: يعني إزاي جابوا مرة وما اتكررتش، قعدوا سنين ما يخلفوش ولما خلّفوا، كانت مرة واحدة.. وأنا بصراحة بقى مش عايز أتكلم أكتر من كده.

سمير، وقد فهم مغزى كلام أخيه: بس يا سافل.

سامي: الحقيقة دايماً مُرة.. بس تفضل حقيقة.

سمير: طب وأنت ما فكّرتش تدوّر على أبوك؟

سامي: لا.. لأنه مش موجود، يا سافر يا مات.

سمير: وإيه عرّفك يا ناصح؟

سامي وقد استغرق في الضحك إلى أن دمعت عيناه: لأنه لو كان موجود كان زمانه كرر غلطته وجاب لنا إخوات تاني.

سمير وقد بدا على وجه آثار الضيق من المزاح في ذلك الأمر: بس بقى لأن كده حرام وعيب، ومتخلينيش لما أروح أقول لأمك.

سامي: حاضر.. تعالى نعدّي البر التاني عند ديسط.. ونقعد اليمة التانية وبص على بلدنا من هناك.. المنظر يجنن.

سمير: من إمتى الإحساس ده يا رومانسي؟؟

سامي: يا ابني أخوك حساس طول عمره.

جلس سمير وسامي في البر المواجه للقرية قبل أن يقول سامي لتوأمه: عايزك تفكر يوم تكتب رواية عننا.

سمير: رواية؟! وعننا؟!

سامي: أنت مش هاري نفسك قراية؟ ودايماً هاريني قصايد وقصص؟

سمير: هاا؟

سامي: اكتب بقى عن كفر البرامون، وعن لعنتها.

سمير: تاني؟! ما أنت عارف إني مش مصدّق اللعنة دي، إزاي أكتب عن حاجة مش مصدّقها؟

سامي: مش مهم أنت تصدق أو ما تصدقش، خليك حيادي، واكتب اللي حصل واللي بيحصل.

سمير في سخرية: وإيه بقى اللي حصل؟

سامي متغاضياً عن السخرية في لهجة أخيه: اكتب عن كل واحد ساب البلد، ومات.

سمير: كلها حوادث فردية يا ابني ما تخليش حد يشتغلك.. بقى سامي بيصدق العته ده؟

سامي: هات لي واحد ساب البلد أكتر من سنتين وفضل عايش.

سمير: مش عشان حاجة اتكررت تلات أو أربع مرات تبقى حقيقة ونسلم بيها.

سامي منزعجاً: كام؟؟ تلاتة!!

ده السنة اللي فاتت لوحدها اتنين؛ محمد حميدة اللي قعد في إسكندرية والعمارة وقعت فوقه، وأشرف صلاح اللي أخد سجن خمس سنين وفي السنة التانية مات في السجن في خناقة، وحجازي اللي في إيطاليا وكل سنة

يجي زيارة ويتحجج ويقول لك أصل التلج هناك مش عارف إيه، والآخر رجع برضه ميّت.

وكل اللي سافر الخليج أو أي دولة تانية وكان حريص ينزل كل سنة برضه رجع بأمراض الدنيا وفي الآخر مات.

سمير معانداً: دوّر في أي بلد تانية هتلاقي فيها أكتر من عشرة سابوها وماتوا برضه.. يبقي عندهم لعنة؟!

سامي متحدياً: هات لي بلد واحدة على مستوى الجمهورية مفيهاش واحد قدر يقعد بعيد عنها سنتين.. أتحداك.

سمير أنا معرفش، ولو دوّرنا سهل أوي نلاقي.

قبل أن يتذكر شيئاً فيقول: طب واشمعنى الستات؟ ليه الستات بيسيبوا البلد عادي وما يحصلش لهم حاجة لما يتجوزوا برة.

سامي: أنا ما اعرفشي السبب.. أنا مش بحل نظرية، أنا بقولك عن واقعة بتحصل فعلياً وممكن حاجة ليها علاقة بالجنس والهرمونات.

ضحك سمير بشدة وهو يقول: عجبني أوي وأنت بتحاول تخليها في إطار علمي.

سامي: بلاش دي يمكن الكَفر بيمشي الحريم عشان يجيب حريم أحلى زي هياتم كده..

وضحك وهو يقول: تحسين نسل .

ثم نظر لأخيه قائلاً: يا راجل ده جوز هياتم لسه مش لاقيينه.. مش عارف بتعاند إزاي وأنت عارف إنهم زمان وهما بيحفروا يبنوا المسجد الكبير لقوا جثث كتيرة، ولقوا كُتل دم لسه طازة؛ بعد كل السنين دي لقوا الدم زي ما هو.. تقدر تنكر؟؟ طب وكل شم نسيم واحد لازم يغرق!! ليه ما يكونش البير ده كان تحت البلد كلها، وكان منفى أو سجن أو حتى مقابر جماعية، وكان جنب البرامون، وعشان كده البرامون أخدت الاسم ده.. وبعد فترة البير اتردم، وجه ناس سكنوا فوقه وما يعرفوش

وبقت كفر البرامون؟

سمير: يا سلام!

سامي: مفيش حد في البلد مش مصدق القصة دي.. ولو حد واثق من إنها اشاعة أو كذب أتحداه يقعد بره سنتين، مش هتلاقي.

سمير: طب إيه رأيك أعملها أنا؟؟

نظر إليه أخوه غير مستوعب مقصده..

فنهض واقفاً هاتفاً بأعلى صوته تجاه قريته: أنا هتحداكي يا كفر البرامون، وهسيبك أكتر من سنة..

سامعاني يا بلد، أنا هسيبك ومش خايف.

قال له أخوه وقد ظهر عليه التوتر: ما هو قال له يابا عايز أتشهر، قال له تعالى في الهايفة واتصدر يا ابني.

سمير: تفتكر البير فهم كلامي، ولا بيتكلم هيروغليفي وهنضطر نجيب زاهي حواس؟

فعاد سمير ثانية للصراخ: أنا بتكلم جد.. وهثبت للناس دي إن كلامهم ده إشاعة وهبل..

ولو تعرفي تعملي حاجة اعمليهاااااااااااا.

لم تَرُق سخريته لأخيه الذي ظهر التوتر البالغ على وجهه مما يقوله سمير الذي عاد للجلوس بجواره وقال: طب بلاش الستات مش بيموتوا ليه؟ تفتكر الرجالة بتموت ليه؟

سمير مفكراً: أكيد دي لعنة فراعنة.. وقبل ما تتذاكى، أنا معرفش..

سامي: ممكن يكون لأننا بنفضل طول عمرنا بنتعرض لحاجة معينة من البير ده طول وجودنا هنا جنبها، ولما بتغيب عنها فترة معينة بنموت

سمير: جرثومة مثلاً؟

سامي في حذر: مثلاً.

قال سمير ويبدو على كلامه نشوة الانتصار: وإيه علاقة الجرثومة بعمارة تقع أو واحد يتوه في العراق.. وليه مفيش حد من المسئولين اهتم بالموضوع ده؟ عارف ليه؟ لأنه خزعبلات.

سامي بنفاذ صبر: أولاً لأن مفيش حد في البلد بيحب يجيب السيرة دي بره.. اللي خايف من البير.. واللي خايف من التريقة.. واللي خايف من الشماتة.. وثانياً هو حد يعني كان فسّر اللي حصل للي فتحوا مقبرة توت عنح آمون.

سمير في خبث: تفتكر عنخ آمون تقرب لكفر البرامون ولا ده آمون من أم تانية؟

سامي بنفاذ صبر: يلعن أبو اللي يفضفض معاك تاني يا شيخ.. هتقرف أمي ليه؟.. سيبك من أم اللعنة خالص ابقى اكتب الرواية بس عن قصتنا أنا وأنت.. واكتب نهاية على كيفك حلوة كده، أو مين عارف هتبقى نهايتنا إيه؟؟

قبل أن يقول في شرود: تفتكر نهاية قصتنا إيه؟

وذهب بفكره بعيداً ناظراً إلى ذلك المشهد الخلاب للقرية..

كانت لوحة ربانية لا تستطيع الكلمات وصفها.. فربما هناك كلمات قد تصف رائحة الزهور؛ لكنها أبداً لن تجعلك تشمها.

سمير: أنت القعدة دي هتأثر فيك ولا إيه؟

قال له سامي: بحب أقعد هنا أوي.

قطع حديثهما هذا المركب الصغير الذي اقترب من الشاطئ، وربطه صاحبه في شجرة قبل أن يصعد ويلقي عليهما السلام.

وما إن رآهما حتى فزع ونقل وجهه بينهما.. قبل أن ينصرف مسرعاً وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة.

رد سمير عليه السلام قبل أن يقول لأخيه: ما له ده؟

قال له سامي: ده راجل كنت هبني له فرن بلدي.

رد عليه سمير باستغراب: أنت تبني؟! وفرن؟!

سامي وهو يضحك: آه ودلوقت لقانا اتنين مش واحد.. زمانه بيسب ويلعن...

قبل أن يضع يده على كتف أخيه وهو يقول في حنان: يلا بينا نروح.

(١١)

بدأ سمير في التعود والتأقلم تدريجياً في حياته الجديدة في القاهرة، ووسط انشغاله ما بين المحاضرات وروسوماته الهندسية بدأت الحياة تعود نسبيّاً إليه؛ بل أصبح يحب تلك الحياة..

وكانت هناك رحلة للفيوم نظّمتها أسرة المهندس في الكلية في يوم الإجازة.. وجدها سمير فرصة مناسبة لتغيير جو الروتين الذي يعيشه، وأيضاً سيقابله هناك وائل وعاطف.. وأقنع توأمه للمجيء تلك الرحلة معه، وجاء سامي ليلاً ليبيت مع سمير في المدينة الجامعية؛ حيث سيأتي الأتوبيس فجراً

واستأذن سمير من النقيب الجميل بشأن بيات أخيه معه، ووافق الضابط مع تقديره لسمير الذي لو دخل توأمه من الباب لن يعترضه أحد لظنه بأنه سمير، ورغم هذا استأذن سمير..

في الصباح الباكر وقف الأتوبيس في شارع المعهد الصناعي منتظراً الطلبة والطالبات..

ونزل سمير وسامي وكل الطلبة، وجاء الطلبة والطالبات الآخرين من منازلهم..

وتحرك الأتوبيس..

كان سمير يشعر بالسعادة البالغة لوجود توأمه معه ولذهابه إلى الفيوم؛ حيث وادي الريان والسواقي والبحيرة..

عكس سامي الذي لم يشعر بأية رغبة في تلك الرحلة؛ إلا تلبية لطلب توأمه، وتخفيفاً من أثر الغربة عليه.

كان اكتشاف الطلبة وجود توأم يشبه سمير مفاجأة بالنسبة لهم؛ أما الحدث الاستثنائي فهو وجود توأم آخر..

توأم نسائي.. فتاتان إحداهما محجبة، والأخرى ترتدي بادي نص كم وبنطال جينز وكوتشي.. كانت ملامحمها جميلة؛ قوام متناسق، وجه خمري جميل، وشعر أسود حرير، وتفصيلة الشعر تظهر بالطبع من غير المحجبة.

أمسك منسق الرحلة مايك الأتوبيس وشكر المتواجدين، وحياهم قبل أن يخص التوأمين قائلاً: فرصة سعيدة أوي إن عندنا ٢ توائم.

قاطعه سامي مبستماً: قصدك ٤؛ لإننا اتنين توأم، وهما اتنين توأم.

قال منسق الرحلة: طب عايزين تحية التوأم الرجالي هنا..

علا التصفيق والصفير من الشباب.

قال منسق الرحلة مرة أخرى وهو يشير للتوأم النسائي: طب عايزين نسمع التحية لدول..

تصفيق على استحياء من الطالبات وسط هتافات معترضة من الشباب هاتفين: بيييييييييه..

وعلت الضحكات في الأتوبيس، قبل أن يقول المنسق: عايزين نشوف بقى الإبداعات بتاعة الموهوبين اللي هنا.

جاء بعض الطلبة ليمسك المايك ويبدأ في الغناء، وآخرون في إلقاء الشعر، وتبارت أيضاً بعض الطالبات؛ في حين مال سامي على أذن سمير قائلاً: وأنا اللي فاكر طلبة هندسة معقدين والبنات فيها طالع لهم شنب، ده إنتو طلعتوا مسخرة.

كان سمير مشغولاً عن أخيه بالنظر حيث تجلس الفتاتان التوأمان؛ إحداهما محجبة والأخرى بلا حجاب.. كانت ملامحهم تحمل ذاك الجمال الهادئ، عيون عسلية، وابتسامة هادئة.. كانت تأسر أي قلب.

قطع سامي شرود أخيه وهو يقول له: إيه الرحلة الطويلة دي، ما لها ديسط ما هي مية وخضرة برضه.

ضحك سمير وهو يقول له: حاول إن الناس هنا متعرفش إنك فلاح.

سامي: ليه بقى إن شاء الله، عار ولا إيه؟

قال له سمير ليغيظه: لا، بس مكانكم مش هنا.

سامي: أمال فين إن شاء الله؟

سمير: ورا الجاموسة.

سامي: ما انت حلو أهو وبتهزر، وانا اللي فاكر موضوع الغربة مؤثر فيك.

سمير: بس يا فلاح.

وهنا وصل الأتوبيس، وعلا صوت المشرف: حمد لله ع السلامة يا شباب.

اندفع سامي للنزول، وفي أثناء نزوله اصطدم بإحدي التوائم تلك التي بلا حجاب..

فقالت له في غضب: إيه يا عم مش تحاسب؟

قال لها في برود: هو حضرتك اللي بتجمعي الأجرة؟ عموماً مش هحاسب

ونزل سريعاً من الأتوبيس..

ظلت الفتاة تنطق بكلمات غير مفهومة، وهي تنزل من الأتوبيس، ونظرت في غضب شديد إلى سامي الذي تجاهلها تماماً وهو ينتظر نزول سمير، وعندما رآه قال له: إيه يا عم؟ سنتين بتنزل؟!!

اقترب منه سمير قائلاً: مش الأول البنات تنزل.

قال سامي: هو أنا ما قولتلكش.. عندنا في الفلاحين منعرفش الحاجات دي.

جذبه سمير من يده، حيث يقف التوأم، وسامي لا يعرف ماذا ينتوي أخوه قبل أن يقول سمير للفتاة التي صدمها سامي: أنا آسف جدّاً نيابة عن أخويا.

همت الفتاة أن تتكلم وهي غاضبة: فبادرها سامي قائلاً: شوفي هو اعتذر.. فأنا أنصحك نعدي الموضوع على كده.. أي كلمة منك كده أو كده ما اضمنش رد فعلي.

تدخلت المحجبة قائلة: إنتو توأم برضه؟

سامي: لا.. حالة انفصام في الشخصية بس وسعت مننا شوية.

مطت الفتاة المرسلة شعرها شفتيها؛ في حين ضحكت الأخرى قائلة: حلوة بصراحة.

سمير: أحب أعرفكم أنا سمير، وده سامي.

المحجبة: تشرفنا يا باشمهندس، وأنا سمية ودي رفيدة.

سمير: فرصة سعيدة يا باشمهندسة سمية.

ثم نظر إلى رفيدة قائلاً: خلاص بقى سماح.

قاطعه سامي قائلاً: سماح مين؟ بتاعة مسطرد؟

فأجابته رفيدة: لا يا ظريف كان اسمها صباح.. سماح دي بتاعت هاني رمزي، دي سماح...

سامي: آه ساعة ما كان بيبص عليها بالمنظار؟

ثم قال: عموماً حصل خير..

حبيبي.. حبيبي

كان هذا صوت وائل

التفت سمير ليجده مع عاطف وشخص آخر

أخذت الفتاتان جنباً مع باقي الرحلة، وأتى وائل، وهو يقول: الفيوم نورت يا سمير وربنا.

يتدخل سامي: منورة بأهلها.. المهم هناكل؟

وائل: طبعاً يا زميلي، أنت سامي صح؟

سامي: أيوه.. وأنت وائل، وده عاطف صح؟ أمال مين التالت ده؟

يقول الشخص الثالث القصير جدّاً والمقوص القدمين بطريقة تجعلهما أقرب للدائرة: أخوك فريد كسبر، من دار الرماد.. يعني عاصمة جهنم.

سامي: إزيك يا عم إبليس، طب يا عم إبليس أخوك مالوش في جو العيال ده.. نط الحبل والاستغماية، والسبع بلاطات..

انفجروا ضاحكين قبل أن يقول فريد: طب ليك في الحشيش؟

سامي: إبليس إبليس بجد.. أنت ما بتفوتش فرصة للرذيلة؟

فريد: لا.. أصل أنا ماشي بمبدأ حب ما تعمل.. لأنك مش هتلاقي بعد كده.

انفجروا ضاحكين قبل أن يسأله سامي: بس قول لي بجد يا فريد هما ليه بيقولوا عليكم بلد الكتاكيت؟

قال له فريد في خبث: لما تقول لي ليه بيقولوا عليكم بذرة فرنسية؟

أجابه سامي في تلقائية غير متوقعة: عشان بنات المنصورة حلوين؛ فالناس الحقودة لازم تطلّع علينا إشاعة، ويقول لك الحملة الفرنسية؛ إذا كان الفرنسيين أصلاً ملحقوش يوصلوا المنصورة، وكمان حبسنا لويس بتاعهم في دار ابن لقمان.

ثم قال لفريد: وأحب أضيف لحضرتك معلومة مهمة..

التفت له فريد في انتباه شديد قائلاً: هاا؟

أجابه سامي: جدتي أم أبويا كانت في زيارة للصعيد يوم الحملة.. وجدتي أم أمي كانت عندها ظروف أيامها يعني كده كده إحنا براءة من الموضوع ده.

ثم قال له: جاوبتك أهو.. قول لي أنت بقى، إنتو كتاكيت ليه؟

تدخل وائل في الحوار قائلاً: لالالالالالالالالا ده أنت مختلف خالص عن سمير، ده سمير بالنسبة لك نعمة.

قال له سامي: بتغير الموضوع، عموماً سمير المخ وأنا العضلات..

سأله وائل: يعني أنت من غير سمير تبقى إيه؟

أجابه في سرعة: أبقى وائل مصطفى.

وانفجروا ضاحكين.

***

بعد يوم طويل ورائع.. وفي أثناء عودتهم من الرحلة أتى معهم وائل وعاطف وجلسوا مع سامي وسمير في المقعد الأخير، كانت رفيدة وسمية تجلسان أمامهم..

وكان معظم الطلبة قد أصابهم التعب والإنهاك من اللعب طوال اليوم؛ أما سامي وسمير وصديقيهما فكانوا لا يزالون بنشاطهم ويتسامرون..

وسأل وائل سامي: هتسافر، ولا هتبيّت معانا الليلة دي كمان؟

سامي: لالالالالا.. أنا مروّح كفاية كده عندي شغل..

عاطف: والله قعدتك جميلة أوي يا ريس..

وهنا قال سامي مسرعاً: مفيش غير ريس واحد بس، هو الريس مبارك.

قال سمير معقّباً: طيب لما يخرج من السجن الأول..

وهنا تدخلت رفيدة في الكلام: هو إنتو ضد بعض في السياسة؟

بادرها سامي قائلاً: أصل أخويا طيب، وبينضحك عليه بسهولة.

نظرت رفيدة إلى سمير متسائلة: هو انت إخوان؟

قال لها سمير: لا، أنا حازمون.

رفيدة: على فكرة بابا إخوان، وسمية إخوان.. لكن أنا ٦ إبريل.

سامي: كلكم خربتوا البلد..

سمير: فعلاً إحنا اللي رجعناها ورا من ٦٠ سنة، يا راجل ده أوروبا كانت مديونة لينا.

سامي: يكفي دلوقت إن الناس بتخاف تمشي بالليل في الشارع.

ثم نظر إلى وائل مصطفى قائلاً: ولا إيه يا زميل؟

وائل: إنتو اهروا براحتكم في السياسة.. أنا مليش فيها.

سامي: إزاي، ملكش رأي في بلدك وسايب العملا والمضحوك عليهم يخربوها.

رفيدة: عملا؟ يعني أخوك عملا؟

سامي: لا.. أخويا من المضحوك عليهم.

سمير: بقى أنا اللي مضحوك عليا، يا فلول.

ضحك سامي من قلبه: أوعدك إنكم قريب هتبقوا فلول زينا.

سمير: بس إزاي أبوكي اخوان وإنتي ٦ إبريل؟؟

رفيدة: طبعاً مش بالساهل وخصوصاً اللبس؛ بس بابا مديني حرية مزعّلة كل العيلة منه.

سمير موجهاً كلامه لأخيه: لأول مرة المصريين يختاروا رئيسهم.. من فرعون لفرعون، وأسرة لأسرة.. رومان لإنجليز لفرنسيين لمماليك لمحمد علي وولاده.. إحنا بنصحى ونلاقي فلان بقى رئيس ونقول قشطة، ملك يموت ونقول قشطة.. وتيجي شجرة الدر تختار واحد تتجوزه عشان يحكمنا ونقول قشطة، سيبوه يكمل مدته ونموت ويفضل هو رئيس.

سامي: ومسبتوش مبارك ليه التسع شهور؟ ونسيب مرسي لما يبيع البلد؟

سمير: يا عم أنت يخصك في البلد إيه؟

- كوبري طلخا والقعدة في البر التاني عند ديسط.

- أوعدك محدش هيبيعهم ولو جابو سعر عالي حتى.

تدخل عاطف في الحديث قائلاً: ده نموذج صغير من مصر.. ده إخواني، وده تبع مبارك، وده ليبرالي، وده ملوش فيها.. هي دي مصر.. ليه مش قادرين نستوعب ده؟ مع إن ده أخو ده ودي زميلة دي.. وبلاش كلام في السياسة بقى، إحنا في رحلة.

قال سامي: أنا هنام أصلاً الساعة دي، وأسيبكم مع نفسكم عشان أعرف أكمل في الطريق لوحدي.

ظل سمير ورفيدة يتجادلون وقتاً في السياسة، ووقتاً في ظروف البلد.. إلى أن وصل الأتوبيس إلى حيث انطلاقته الأولى عند المدينة الجامعية، وأثناء نزولهم لاحظ سمير شاب يسير مع فتاة، وخلفهم ثلاثة شباب يقومون بمضايقتهم.. كانت ملامح الفتاة تقترب من البكاء..

وهنا ارتفع صوت سمير قائلاً: يا كابتن يا كابتن.

نظر إليه الشباب الثلاثة قائلين: فيه حاجة؟

قال سمير في خشونة: آه فيه فطير وحمام بيطير.. أجيبلك؟

توجه أحد الشباب إليه في عداء: إيه يا عم الفطاطري أنت...

وقبل أن يُكمل كلامه اندفع سامي نحوهم دافعاً القادم نحو أخيه في صدره فأسقطه أرضاً على ظهره، وجاء وائل وعاطف وآخرون ووجد الشباب الثلاثة أنهم سيصبحون في موقف مخزي؛ فانصرفوا في صمت..

وانتهز الشاب والفتاة الفرصة ليمضيا.

وهنا اقتربت رفيدة من سمير قائلة له في انبهار: إنت جدع أوي.

***

(١٢)

في صبيحة اليوم الثاني، وأثناء جلوس سمير أمام مدرج عبد الرازق بكليته وجد رفيدة وسمية قادمتين نحوه، نهض من جلسته واقفاً وسلم عليهما..

رفيدة: إنت فين يا باشمهندس ده إحنا قلبنا عليك الكلية.

سمير: عليا أنا؟

نظرت سمية لأختها نظرة معاتبة في حين قالت رفيدة: آه عليك أنت.

قال سمير: أنا موجود أهو.

رفيدة: وأخوك عامل إيه؟

سمير: الحمد لله روّح إمبارح بالسلامة.

رفيدة: الله يسلمه ويسلمك.

سمية: هو أنت معندكش محاضرات ولا سكاشن دلوقت؟

سمير: عندي سكشن بس بعد ساعة.

سمية: ما أنا اكتشفت إنك معايا في نفس السكشن.

طب أنا عندي كورس دلوقتي هتيجي معايا يا فوفو؟

رفيدة: لا.. أنا هفضل مع المهندس سمير، وهتلاقيني في الكافتيريا.

ذهبت سمية وتركت رفيدة التي نظرت إلى سمير فوجدته مرتبكاً.

فقالت له: الله.. هو أنت بتتكسف.

أصبح وجه سمير ينافس الطماطم احمراراً وهو يقول: لا عادي خالص.

ضحكت رفيدة من قلبها وهي تقول: واضح واضح.. من زمان أوي مشفتش ولد بينكسف ده أنا كنت مفكرة إن الموديل ده انتهى من السوق.

سمير: أنا مش مكسوف، بس أول مرة.. يعني..

رفيدة: مصدقاك.. بس اللي يشوفك ساعة ما كنت بتدافع عن الواد والبنت إمبارح ما يشوفكش دلوقت.. مش هتعزمني على حاجة؟

وجدها سمير فرصة ليلتقط أنفاسه؛ فتقدمها ذاهباً إلى الكافتيريا، فقالت له مبتسمة: الإتيكيت إني أمشي أنا الأول.

قال لها مبتسماً هو الآخر وهو يخرج محفظته: فلاح بقى، ما انتي عارفة..

أجابته بسرعة وتلقائية: هو ده اللي عجبني فيك وجابني مخصوص من جامعة عين شمس هنا النهارده.

وسقطت محفظته على الأرض من توتره.

وضحكت رفيدة ضحكة أثارت انتباه كل مَن في الكافتيريا..

في حين انحنى ليُحضر محفظته وهو في قمة الارتباك قبل أن يسأل رفيدة: تشربي إيه؟

ردت رفيدة: كوفي لاتيه.

قال لها سمير في استغراب شديد: إيه؟

ضحكت رفيدة ضحكتها ثانية، ولفتت الانتباه للمرة الثانية قبل أن تقول: عايزة ساندوتش جبنة، ومعاه حتتين خيار حادق.

ثم أكملت: إيه رأيك في الخيار ده؟

لم ترق دعابتها لسمير؛ فاستدركت قائلة: متزعلش طيب، هات أي حاجة وأنا موافقة عليها..

أحضر سمير اتنين بيبسي، فقالت له باسمة: طب مانتو في بلادكم متنورين أهو.

قطّب سمير حاجبيه في حين اتسعت ابتسامتها هي مكملة: والله مش قادرة أحوش نفسي؛ بس لعلمك ده مش تقليل من شأنك؛ بالعكس وربنا.

ثم نظرت إلى عينيه قائلة: أنا منبهرة بيك جدّاً.

تحركت يد سمير حركة اعتباطية فوقع منه البيبسي على أرضية الكافتيريا؛ في حين ضحكت رفيدة ضحكة أثارت انتباه الكلية كلها، وليست الكافتيريا فقط.

***

قبل أن يتوقع هو، كان سمير يرد الزيارة لرفيدة في جامعة عين شمس..

كان قد بدأ في التعلق بها؛ بضحكتها، وحيويتها، وانطلاقها.. كانت كقطة رائعة ما إن تقترب منها وتتعرف عليها حتى لا تستطيع الابتعاد عنها.. كان يشعر معها بحُرّية لم يجربها من قبل.. كانت تُدخله عالمًا جديداً عليه في كل شيء؛ أنواع الأطعمة الغريبة وأسماءها الأغرب، مشروبات تقترب أسماؤها من أسماء أدوية الكحة.. كان يقتحم عالمها وهو منبهر بها مثل انبهارها به، وربما أكثر.

تعددت الزيارات المتبادلة بينهما.. زاد التعلق والوله.. كان يعود بها يوميّاً من جامعتها وفي أغلب الأوقات يأتي بها سيراً على الأقدام من جامعة عين شمس إلى ميدان الحلمية حيث تسكن، ثم يكمل هو إلى المدينة الجامعية.. كانا يسيران بحذاء مترو الأنفاق حتى لا يتوها؛ لأنه غريب عن القاهرة، وهي لا تعرف الشوارع جيداً.. أصبح يحفظ هذا الطريق كأصابع يده.. بل إن أصحاب المحلات بدأوا يألفونهما.. أصبحت لهما طقوسهما

الخاصة؛ فلا بد أن يأكلا في هذا المحل، وأن يشربا عصير قصب –حسب رغبته– من هنا..

أصبحا أكثر قرباً، وأكثر تفاهماً.. وأصبحت هي لا تستغني عنه.. ففي أول مغادرة له لقريته طلبت منه أن توصله إلى الموقف، ومع إصرارها وافق.. وذهبا سويّاً إلى عبود، وطلب منها أن تذهب هي؛ فرفضت أن تتركه قبل أن توصله.. وبعد ركوبه في ميكروباص المنصورة، أشارت له طالبة منه أن ينتظر الميكروباص التالي ليجلسا سويّاً قليلاً.. ودام الانتظار لأكثر من عشرة ميكروباصات متتالية، كل سيارة تترجاه أن ينتظر التالية..

وفي النهاية بكت ورفضت أن يسافر.. وأمام دموعها تراجع عن سفره هذا الأسبوع، وعاد معها إلى الحلمية، وأثناء عودته معها في سيارة ميكروباص بكت في السيارة.. كانت تبكي بكاءً لفت انتباه كل الركاب وتساؤلهم.. كان الجميع ملتزماً الصمت، لا صوت يعلو صوت بكائها؛ بل عندما كان ينادي أحد الركاب على السائق كان يناديه بصوت منخفض؛ وكأن الجميع اتفقوا على عدم التأثير على هذا المناخ بأي مؤثرات خارجية..

لم يحتمل سمير أن يرى دموعها؛ فقد كانت وكأنها كمادة كاوية تنزل على يده التي في حضنها لتحرقها قبل أن تحرق قلبه.. فمال على أذنها قائلاً في تأثر: خلاص، مش مسافر الأسبوع ده..

لم تجبه رفيدة؛ بل أمسكت يده ونامت عليها بوجهها، وبكت..

- رفيدة الناس بتبص علينا..

ظلت تبكي..

ومن هذا اليوم وهو يسافر بغتة.. تستيقظ على رسالة له أو اتصال بأنه في القرية ولن يتأخر..

أصبحت تملك كل الأكسجين الموجود في الكوكب، ولا يستطيع أن يبتعد إلا قليلاً.. لم يعد قادراً على الابتعاد عنها إلا قليلاً.. كان الاقتراب منها يجعله يتنفس هواءِ كان منذ لحظات بالقرب من قلبها.. كان الابتعاد عنها فترة طويلة يعني الاختناق.

***

(١٣)

بعد صلاة الفجر

تكلم عبد العاطي في ميكرفونه:

- بسم الله الرحمن الرحيم

عم الصمت أكثر وأكثر في القرية التي بعد الفجر تبدأ في الحركة نسبيّاً..

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

كانت تلك الجملة كافية للجميع بالتوقف عن ما يفعلونه؛ لينتظروا اسم المتوفي.

- انتقل إلى رحمة الله تعالى..

وانتظر الناس..

وهنا زاد الانتظار..

وظن الناس أن الميكرفون انقطع صوته لسبب ما، انقطاع كهرباء أو عطل فني، أو أن عبدالعاطي يمارس هوايته في حبس الأنفاس؛ ولكنهم سمعوا

صوت بكاء عبد العاطي لأول مرة.. لأول مرة يبكي عند إعلان وفاة.. ربما قريبه..

وعاد صوت عبد العاطي الباكي ليعلن عن اسم المتوفى..

- الشيخ محسن أبو الرجال!!

كانت صدمة للجميع.. مات ملاك القرية الطاهر! مات القلب الأبيض!! مات المعلم والمربي!! مات الشيخ الفاضل!! سكن القلب الذي طالما خفق من أجل كتاب الله!! مات فجأة!!

جاء أحد طلابه إليه ليوقظه ويأخذه للمسجد لصلاة الفجر.. فلم يستجيب الجسد الذي ما تأخر يوماً عن نداء ربه.. اليوم يلقى ربه.. حامل كتاب الله.. ومن جعل قرية كفر البرامون تشتهر بأنها بلد القرآن.

جاء الجميع لحضور الجنازة.. كل من تَرَبّى على يده.. كل من حفظ كتاب الله.. كلهم جاءوا للجنازة.

كانت جنازة مهيبة.. كانت جموع البشر من أول المسجد إلى المقابر واقفة في انتظار النعش؛

بل تقريباً لم يتحرك حاملو النعش؛ بل كان النعش يتحرك من يد لأخرى والناس واقفة مكانها من كثرة الزحام..

وبالطبع حضر سمير.. نزل سمير من القاهرة عندما سمع الخبر.. نزل دون أن يخبر رفيدة إلا وهو في طريقه لبلدته..

نزل ليحضر جنازة شيخه، وفي أثناء دفن الشيخ الجليل، ذهب سمير إلى مقابرهم ليقف أمامها ويسأل لساكنيها الرحمة والمغفرة.. وفي أثناء وقوفه، وجد أخاه يأتي ليقف بجواره..

ويقول له: البقاء لله يا سمير! ربنا يغفر له ويرحمه..

سمير: أنا لسه مش مصدق إن الشيخ محسن مات.

سامي: كلنا لها يا حبيبي.

سمير: بس موته بصراحة مؤثر فيّا أوي.

سامي: والله يا حبيبي وأنا.

نظر إليه سمير مستغرباً فقال له سامي: آه وربنا... شوف.. لولا قسوة الشيخ عليّا مكنتش حفظت نص القرآن اللي أنا حافظه ده.. أهو الواحد على قد ذنوبه يلاقي حاجة يقابل بيها ربنا.

سمير: ربنا يجزيه عنا خير الجزاء.

سامي في شرود: تعرف إن أول مرة نتقابل في جنازة.

سمير: ما أنت اللي عمرك ما حضرت جنازة.

سامي: ما هو محدش قريبنا جامد مات.. كلهم ماسكين فيها أوي.. واللي مات كان قبل ما نتولد ونعرفه فمفيش علاقة جامدة.. وكمان أنت وأبوك عاملين الواجب.. وطول ما أنت ماشي في جنازة محدش هيعرف مين فينا اللي موجود..

ابتسم سمير غصباً عنه قبل أن يقول: والأجر؟

سامي: ربك غفور رحيم يا شيخ.. المهم.. أنت واقف هنا بتدعي لمين؟

سمير: بدعي للي موجود.. جدك جدتك.

سامي: إحنا ملناش حد قريب مات نعرفه.

سمير: مش فاهم.

سامي: يعني عايزين حد لينا يموت ونيجي نقف قدامه كل جنازة ونعمل زعلانين عليه وكده زي الناس دي؛ بس مش قريب أوي عشان منزعلش بجد.

أجابه سمير: حاضر.. هنشوف الموضوع ده بعدين.

سامي: أيوة لازم تشوفوا الموضوع ده.. وتشوفوه بسرعة.. منظركم وحش أوي قدام الناس.. عارف؟ ممكن تيجي تتخانق مع حد بعد كده يشتمك ويقولك "اجري ياللي ملكمش حد تزعلوا عليه".

فلتت من سمير ضحكة غصب عنه قبل أن يداريها وينظر لأخيه واضعاً إصبعه على شفتيه.

- خلاص خلاص، هسكت أهو.. بس إحنا يعني كل يوم بنتقابل في جنازة.. طب تفتكر أنا وأنت الجنازة اللي هنجتمع فيها تاني هتبقي بتاعت مين؟

سمير: ربك هو العالم..

غمغم ببعض كلمات غير مفهومة قبل أن يقول له سمير: هتيجي نسلّم على أهل الشيخ محسن؟

قال له سامي: لا.. أنا ماشي.. روح أنت وكأني أنا رحت بالظبط..

***

انتهي سمير من الجنازة وعاد إلى بيته وفي ذهنه تدور خواطر كثيرة عن الموت الذي يأتي بغتة،

عن مفرق الجماعات وهادم اللذات..

أخذ سمير يطرد الأفكار التي طاردته حتى وصل إلى بيته ثم جلس مع أخيه ووالده وأخذوا يتحدثون عن جنازة الشيخ، والأعداد المهولة التي حضرت..

قبل أن يسأل سمير أخاه: إيه اللي حصل في السوق؟

سامي وهو يضحك: قلت مينفعش يبقى سوق التلات قدام بلدنا وما استفيدش منه، أخدت العربية وقلت أشوف أي مشوار.. ولقيت واحد شاري تور هايج عامل زي بتوع مصارعة التيران، والراجل ساب كل العربيات وجالي أنا، وأنا أقول له بلاش.. يقول لي "هديك اللي أنت عايزه".

حطينا العربية في حتة واطية عشان نحمله، والتور هايج وبيلوّش فينا وأول ما حط رجله في العربية خرم الأرضية الخشب، قوم إيه بقى.. مطلع المطواة وبارك في رقبته، وأنا بقول حلال الله أكبر.. الراجل صرخ وبيقول لي "بتعمل إيه".. قلت له ما سألتش السؤال ده للتور بتاعك ليه وهو بيخرم عربيتي بتعمل إيه؟؟ جاي وأنا وبدبحه تسألني أنا؟؟

والراجل يصوّت والناس تحوشني.. والآخر وديته وأخدت ضعف المشوار عشان أصلح العربية، ودي كانت نهايتي مع سوق التلات.

اغروقت عينا سمير وهو يضحك قبل أن تدخل عليهم هيام..

أنا ما جيتش إلا لما عرفت إنك موجود يا باشمهندس..

ثم نظرت للتوأم في حيرة..

همّ سمير أن يتكلم فسبقه سامي قائلاً في هدوء: الله يسلمك يا خالتي.. خير عايزة إيه؟

قالت له هيام، وهي تظنه سمير: جاية اشتكي لك سامي.

قال لها سامي في لهجة مسرحية: الجزمة.. عمل إيه؟ احكي لي.

قالت له وهي تنظر إلى سمير الذي ما زال يكتم نفسه ليرى نهاية مسرحية توأمه: أخوك المحترم في الرايحة والجاية يعاكسني..

تراجع سامي للوراء وكأن أحدهم دفعه في صدره: بتقولي إيه؟

سمير: يا..

قاطعه سامي في صرامة مصطنعة: أنت تسكت خالص.. خالتك هيام؟!.. هيام يا سامي؟! ده أنت مولود على إيديها! إخص.. حقيقي إخص بجد.

قبل أن يقترب من هيام واضعاً يده على كتفها ويقربها منه قائلاً: حقك عليّ أنا يا خالة..

وأمال رأسها ناحيته هاماً بتقبيل رأسها..

وهنا انتفض سمير قائلاً: على فكرة يا خالتي..اللي جنبك ده سامي.

صُعقت هيام؛ وكأنما مسها سلك كهربائي عريان: شيل إيدك يالا من عليّا..

نادى عليها سامي وهو يضحك قبل أن تنصرف: إستني، والله عايزك في موضوع مهم، عايزين نعمل للواد ده فطيرتين مشلتتين وصينية معمّر حلوة، هتيجي تساعدي زينب إمتي؟

نظرت هيام إلى سمير: هجيلك يا باشمهندس قبل ما تصحي واعملهم لك تاخدهم سخنين، بالهنا والشفا..

قال لها سامي: طب وأنا؟

أجابته هيام وهي منصرفة: هديلك على دماغك قول إن شاء الله.

ضحك سامي وهو يقول: بس اوعي تحرقي البلد المرادي.

ثم هتف: يا زينب.. يا زينب.

كان هكذا ينادي سامي والدته كعادته باسمها مجرداً..

أجابته أمه في حنان: يا عيون زينب.

سامي: جعان يا غالية أوي..

أجابته: عندك في التلاجة أكل؛ لأني بنضف لأخوك دكرين بط.

- دكرين بط ليه يا زينب؟.. دكرين؟! أخويا في القاهرة يا زينب مش في الصومال، ويوم لحمة، ويوم فراخ.

سمير: وهو فيه زي أكل الحاجة؟!

سامي: آااه هي بقت اشتغالات في بعضها.. طب أقوم أجيب أكل لنفسي.

فتح سامي الثلاجة ووقف أمامها قبل أن يهتف: أكل إيه اللي في التلاجة يا زينب؟

أجابته زينب: عندك خيار..

سامي: هاا، وإيه كمان؟

- وخس.

- هاا؟

- وطماطم.

- وإيه كمان يا أم الغالي.

ونظر لأخيه قائلاً: لعلمك أنا الغالي مش أنت.

أجابته زينب: ما عندك كمان فلفل أخضر.

أجابها سامي: يا زينب اللي إنتي قولتيه ده كله عبارة عن طبق السلطة، فين بقى الأكل.

أجابه والده: إيه يا ابني أنت اتفجعت؟.. ما أنت واكل من يومين..

أجابه سامي في سرعة: الله الله.. إيه العيلة الظريفة دي، يعني معندكوش أكل وكمان بتهرجوا؟ حاضر حاضر.. أنا رايح أكل عند ناس تانيين.

وانصرف سامي خارجاً..

قبل أن يسأل سمير أباه: هو بجد هيمشي.. طب هياكل فين؟

أجابه والده وعلى شفتيه شبح ابتسامة: هيروح عند عمك عبد المولى.

***

(١٤)

يتصارع الديكان كبطلي فيلم أكشن وتتابعهم من بعيد عنزة صغيرة قبل أن تقفز لتلتصق بأمها التي تتابع خيري؛ حيث يجلس مع عبد المولى على تلك المصطبة أمام بيت عبد المولى قبل أن يسأله عن حال والدته..

فيجيب عبد المولى: الحمد لله، بس الزهايمر مبهدلها أوي.

خيري: ربنا يشفيها وربنا يبارك لك يا عبد المولى على رعايتك ليها، أنا عارف انك انت اللي بتغسل لها وبتنضف لها بنفسك.

عبد المولى: طبعاً يا خيري، والحمد لله أنا حاسس إن ربنا كرمني بسبب أمي دي، وموضوع تسمين المواشي ماشي حلو أوي؛ لدرجة إني –الحمد لله– بوزع لبن وجبنة على الأسماء اللي اتبرعت أيام التور بتاعي ببلاش.. بحاول أعوّض وقفتهم جنبي.

خيري: يعني لما يجيلك عريس لعالية تقدر تجهزها على امتى كده؟

عبد المولى: جهاز عالية جاهز يا خيري والحمد لله.

خيري: طب شوف عايز الفرح إمتى بقى؟

عبد المولى: فرح مين يا خيري.

خيري: يا عم ما انا راسي على الحوار كله وعارف إن الواد عايزها وهي موافقة.

عبد المولى: وأنا مش هعزها عنكم يا أبو الرجال.

خيري: طلباتك يا أبو العروسة.

عبد المولى: اللي زي الناس ما يغلبش، زي الناس وعليّا أنا شوية.

قال له خيري: لا.. خلينا زي الناس بالظبط، والأول اسأل العروسة موافقة ولا إيه؟.. نادي لعالية يا عبده.

نادى عبد المولى لعالية التي جاءت وهي مرتبكة، وكأنها تعلم ما يتكلمون عنه.

قال لها خيري: أنا عايزك لابني سامي، إنتي رأيك إيه؟!

نظرت عالية في الأرض خجلاً قبل أن تقول: اللي تشوفه أنت وأبويا يا عمي.

قال لها خيري: أوعدك إن سامي هيحطك في عينيه، على فكرة الواد سامي حنين أوي.

قالت عالية في حياء: عارفة.

قالها لها خيري مقلداً لها: عارفة؟! طب ع البركة.

دوت زغرودة أمها من الداخل..

في حين قالت أم عبد المولى من الداخل: مين اللي بيزغرد يا واد يا عبد المولى؟

عبد المولى: دي مراتي اللي بتزغرد.

أم عبد المولى: هو أنت اتجوزت من ورايا يا موكوس؟ قلبي وربي غضبانين عليك.

خيري: طب أمشي بقى قبل ما تمسك فيّا وتقول لي أنت اللي بوظت ابني.

مر الاتفاق سريعاً دون أي مشاحنات كتلك التي تحدث في أفراح القرية؛ فغالباً ما يقول أبو العريس عايزينها بهدومها، ويرد أبو العروسة إحنا بنشتري راجل، ثم يقوم كل منهم بفضح الآخر ليلة الدخلة متناحرين حول ماسورة الستاير، والقايمة التي يتفنن أهل العروسة في رفع سعر كل شيء لرفع إجمالي الرقم.. هذا بالطبع بعيداً عن النيش الذي يُعتبر مخزن لأشياء لا تُستعمل إلا بعد وفاة العروسين!!

أما في حالة خيري وعبد المولى ولصداقتهما القوية؛ فلم يختلفا على شيء.. أي شيء؛ بل إن كل منهما كان حريصاً على أن يظلم نفسه ولا يظلم صاحبه.

***

يوم الفرح المزيكا وهو يوم.. والمزيكا عبارة عن مجموعة ناس بلغوا من العمر أرذله وما بعد أرذله، معهم آلات نحاسية غريبة ينتج منها أصوات أغرب ولا تستطيع الجزم من أين تأتي تماماً تلك الأصوات؛ من الآلات أم من حامليها!! ولكن تلك الأصوات تأتي غالباً بعد النفخ فيها أو تخبيطهم في بعض.. وعبارة عن راقصة أو اتنين عندما تشاهدهما يُخَيّل لك أنك في أحد أجزاء فيلم كوكب القرود؛ فالراقصة التي تدور في شوارع قرية عارية نهاراً في أوقات الظهيرة على استعداد أن تخلع؛ ولكنها لا تملك أية مواهب تظهر حتى وإن خلعت..

لو كان فيها الخير مكانتش شربت من الزير..

فرانكشتاين أتى ليرقص عارياً في كفر البرامون.. أين فان هيلسنج ليقبض على هذا المتخفي؟

الآن تفهمون لماذا أشهر راقصاتنا أجانب؟!

أحضر سامي العروسة من الكوافير.. وذهبا عند بيت العروسة؛ فكل القرية تنتظر عند بيتها

ثم بدأ الرِكاب يتحرك في اتجاه بيت العريس

مال وائل مصطفى على أذن سمير قائلاً: حلوة مزيكا حسب الله دي.

سمير: ما أنت لو تعرف المزيكا دي مكلّفانا كام مش هتتريق كده.

وائل بجدية: كام يعني؟

سمير: دكر بط وحلتين محشي.

انفجر وائل ضاحكاً.. قبل أن يكمل سمير: زي ما أنت شايف كده.. الرجالة بتمشي قدام، وبعدها المزيكا، وبعدين عربية العريس، وبعدين الحريم..

كلنا نمشي على رجلينا ماعدا البيه قاعد في العربية مع مراته..

وكل بيت لازم يوقّف المزيكا وينقّطها.. طبعاً بتاع النفخ ينفخ له شوية.. وبتاع الحلل يخبط له شوية..

فلان الفلاني: تيييييييييييييت طراخ طراخ طوووووخ طيييخ

فلان الفلاني: تيييييييييييييت طراخ طراخ طوووووخ طيييخ

بيمسي ع العريس والعروسة

ياخدوا المعلوم ويمشوا..

وأنت هتنقّط مزيكتي، وأنا هردها لك.

وقدام أي بيت فيه واحد ميت جديد يتوقف تخبيط الحلل، ويشغلوا شوية حزين بعدها..

وائل: ياواد يا مؤمن.. وهي الحلل دي بتطلّع حزين؟!!

سمير: وبتعمل السلام الجمهوري كمان.. وفي المسيرة دي بقى كل واحدة قريبة أو حبيبة بتجيب إزازتين حاجة ساقعة؛ هي المفروض رايحة تديهم للعرسان بس مع الزحمة والطراخ والطيخ، بتستسهل وتدلق الحاجة الساقعة ع العرسان وترجع..

طب اللي مش قريبة العريس والعروسة بتسترخص وتجيب ملح.. وفين يوجعك! وعندهم قدرة رهيبة على إصابة العين..

قال له وائل: على فكرة قفايا بقى شوربة من الملح والعرق.

رد عليه سامي من داخل السيارة: فيه واحدة تقريباً حدفت عليّا محشي.. أجيبلك صباعين جنب الشوربة.

ضحك وائل مصطفى الذي يسير بجوار السيارة هو وسمير، قبل أن يقول: ركّز في اللي جنبك يا أخويا وسيبك مننا إحنا.

وأخيراً.. وبعد دورة كاملة حول البلد تبدأ من اليمين تبركاً.. وصل الموكب لبيت العريس، وذهب حاملوا الحلل النحاسية للأكل، وذهب

"فرانكشتاين" أو ما تبقى منه للاغتسال من عرق اللعبطة في عز الحر.. وربما يغير تنكره الآن لدراكولا..

دخل سامي شقته في الدور الثاني في بيتهم للعشاء وللاستراحة، ثم يخرج للاستعداد للسهرة.

***

(١٥)

وبدأت السهرة.. والسهرة تكون عبارة عن مسرح خشبي عالٍ بسلالم خشبية مستخدمين خشب أي مقاول، والسلم الخشبي للصعود وللنزول..

كذلك هناك مطرب يرى نفسه الأجدر بالأسطوانة البلاتينية لولا حظه العثر، ولهذا فهو مطرب بالليل وسائق سرفيس نهاراً، إلى أن يستطيع مقابلة من يكتشفه.

ولا بد من أشياء معينة محفوظة للجميع.. فيأتي سائق السرفيس برتبة مطرب للعروسة، ويسألها: بتحبي العريس قد إيه؟

ولابد أن تنظر العروسة للأرض خجلاً وتجيب في خفوت، بالرغم من أنها بعد قليل تتراقص أمام القرية كلها تاركة كل خجلها، وتتحول لصافيناز..

ومع المطرب تأتي الراقصة مرة ثانية.. والمزيكا بتزيد في السهرة الأورج.. ولاعب الأورج دائماً هو صاحب المزيكا.. وهو أيضاً صاحب السرفيس الذي يعمل عليه المطرب نهاراً.

لكن.. عند سامي الوضع تغير؛ فسامي الغيور العصبي لن يوافق على هذا.. فطلب من النجار الذي يبني المسرح أن يكون بلا سلالم، وتعجب النجار قائلاً له: وإزاي الناس هتطلع مسرح علو اتنين متر تقريباً؟

قال له سامي: مش عايز حد يطلع، أنا هطلع أنا ومراتي بكنبة، ومحدش تاني هيطلع.. مش عايز على المسرح هيصة.. أنا ومراتي وبس..

مش عايز دي روّحت زعلانة أصل فلانة طلعت على المسرح وهي لا، والبت دي عايزة تتصور جنب العروسة..

والفرقة أعمل لها مسرح أوطى مني، مش عايز رخامة مطرب ييجي لنا، ولا بتاع أورج ييجي للعروسة ويقول لها تعالى غني لجوزك أغنية..

ونفّذ النجار له ما أراد، ولم يصعد أحد على المسرح، إلا سمير يقفز لالتقاط الصور مع أخيه أحياناً ثم ينزل لمراعاة متطلبات الحضور..

كان أصدقاء سامي متحسّبين لأي شغب أو أي شجار مع أي شخص يريد إفساد الفرح بقصد أو بدون قصد.

ولكن وبدعوات زينب مرّ الفرح سريعاً، وبدون أي مناوشات..

ونزل سامي وعالية.. لتبدأ ليلة العمر.

* * *

بعد منتصف ليلة الفرح وجد سمير رسالة على موبايله من موبايل أخيه: اطلع في السر عايزك ضروري.

ترك سمير وائل وفريد وعاطف -الذين أتوا لحضور العرس- في الغرفة دون أن يخبرهم بشيء،

ثم صعد لأخيه مندهشاً قبل أن يسأله: خير.. في إيه؟ قلقتني!

قال له سامي: الحرارة فاصلة من عندي خالص.

- حرارة إيه؟ أنت عندك تليفون أرضي فوق؟

افهم يا حمار.. مفيش خالص، فس..

سمير: إزاي؟

سامي في عصبية: ما فيش.. ما فيش.

سمير: ومن إمتي الإحساس ده؟

سامي من النهارده العصر، وأنا حاسس إني مش طبيعي، أول ما أقرب من لولو ألاقي الدنيا نامت خالص.

سمير: يمكن بس إرهاق توتر قلق.

سامي: أنا برضه اللي أقلق ولّا أتوتر.

سمير: أمال تفتكر إيه؟

سامي منفعلاً: أنا معمول لي حاجة.

سمير: تفتكر؟

سامي: ما فيش غير كده.

سمير: طب وطي صوتك عشان محدش يسمع طيب.

سامي: محدش يسمع!! ده أنا فضيحتي هتبقى بجلاجل.

سمير: عندي اقتراح هيحل لنا الموضوع.

سامي في لهفة: مستني إيه، قول؟

سمير: اقلع هدومك وبدل معايا، وانزل اقعد مع العيال تحت، وأنا هدخل أرفع راسنا، ده مش عشاني، ده عشان اسم العيلة، ولما هحتاجك هنادي وأقول: جزر جزر.

سامي في تأثر مصطنع: طول عمرك بتضحي عشانا.. يا جزمة، أنا في إيه ، وأنت بتهرج؟!

سمير: طب قضيها بوس للصبح، وربنا يحلها.

سامي: هي طلبت معاك برود ليه كده؟

سمير وهو يحاول منع نفسه من الضحك: لا.. بس تخيّلت وأنت جوه، ثانياً فاكر ساعة المركب كنت بقولك مبحبش التهريج في الحاجات دي.

سامي: ودلوقت حبيتها؟

سمير في جدّيةٍ: أنا عارف الموضوع ده اتعمل ازاى.

سامي مستفسراً: إزاي؟

سمير: ساعة الفرح جالي مصطفى بيبس السواق، وقال لي: إن ناس أخدوه مشوار لبلد اسمها نجير، وراحوا لشيخ، وهما راجعين عرف إنهم كانوا بيعملوا عمل لعالية، اللي يقرب منها يتربط؛ بس أنا ما اهتمتش بكلامه.

سامي: مين ده اللي رايح يعمل لها؟

سمير: عمها.. تخيل؟!

سامي: طب نادي لي السواق ده.

سمير: لا يا عم، اهدى والصباح رباح.

سامي: هتروح ولا أروح أنا.

سمير: لا خلاص اهدى، اهدى، هنزل.. عايزه ليه؟

سامي: قول له: سامي بيقولك هات ميكروباصك وتعالى له حالاً، وما تستناش رده، ارمي الكلمتين وتعالى.

سمير: حاضر

– وقول لصحابك تحت يجهزوا، هاخدهم في مغامرة حلوة، ليكونوا فاكرينا فلاحين وملناش في الخربشة.

جاء مصطفى بيبس على عجل، وركن سيارته أمام بيت أبو الرجال؛ فوجد كل أصدقاء سامي منتظرين، وعلى وجوههم علامات الغضب..

دخل السائق إلى بيت أبو الرجال فوجد سمير واقفاً: فقال له والله يا سامي مكنتش أعرف.

قال له سمير: أنا سمير، وأوعدك إن أخويا مش هيقرب لك بس بشرط..

السائق: أؤمرني يا باشمهندس..

سمير: تاخدنا لبيت الدجال ده.

السائق: طبعاً طبعاً.

ركب الجميع السيارة، سامي وزوجته في الأمام بجانب السائق، وسمير وأصدقاؤه وأصدقاء سامي بالخلف.. ووصلوا إلى بيت الدجال في قرية نجير.. كانوا قد أصبحوا قبل الفجر بقليل..

فنزل سامي وعالية، وتبعه أصدقاؤه، وعندما أشار السائق إلى باب البيت؛ أشار سامي للمعصراوي إلى الباب؛ فاندفع المعصراوي بكتفه إلى الباب فهشمه إلى شظايا..

فاندفع الجميع هناك ودخلوا البيت..

وبعد خمس دقائق تمت السيطرة على جميع مَن بالبيت؛ فسحب سامي الدجال، وقال له: خدنا لأوضة نكلمك فيها على انفراد عشان هبسطك..

أشار له الدجال بيده إلى حجرة جانبية؛ فدخلوا جميعاً بها، وظل بعضهم بجوار زوجته وأولاده؛ فقال له سامي: من غير لتّ وعجن، أنا متجوز النهارده، وكنت عامل حسابي هدخل الليلة..

وهدخل الليلة يا على مراتي يا عليك.. نظر إليه الدجال غير مستوعب ما قاله..

فقال له سامي: زي ما سمعت كده أنا جوز عالية دي اللي جالك عمها عمل لها عمل.. ويا هي يا أنت.. أنا الحرارة بتقطع عندها بس؛ لكن لما هكون معاك أظن هتشتغل.. قلت إيه.. هتقلع؟

لم يعط الدجال نفسه فرصة للتفكير؛ فبعد رؤية المعصراوي وإخوانه حسم أمره سريعاً، وأخرج بعض الأشياء، وقال بعض الكلمات..

ثم قال لسامي: أنت بقيت كويس، وادخل الأوضة دي كده وبوس مراتك، وشوف..

أخد سامي يد عالية، وذهب ناحية الغرفة التي أشار إليها الدجال، وقبل أن يكمل طريقه عاد إلى الرجل قائلاً: مش محتاج أروح في حتة.. أنا فعلاً بقيت كويس.

ثم اقترب من الرجل قائلاً: لولا ولادك اللي بره دول كنت خليتك عبرة، هو عمها دفع لك كام؟

قال له الرجل: ٥٠٠ جنيه.

سامي: اجري هاتهم.

ذهب الدجال إلى غرفة أخرى، وأحضر المبلغ؛ فأخذه سامي ثم انصرف وهو يقول لزوجة الدجال: والله غصب عني أدخل كده؛ بس جوزك السبب..

عاد سامي ومعه العصابة كاملة.. ثم أعطى السائق ٢٠٠ جنيه قائلاً له: خد.. رايح تعمل، قابض.. رايح تفك، قابض.

قال له السائق: مش عايز حاجة والله يا سامي.

سامي: لما أقولك خد يبقى تاخد.

أخذ السائق المال وانصرف..

ثم أعطى سامي الـ٣٠٠ جنيه الأخرى للمعصراوي قائلاً: ظبّط بقى الرجالة بعشوة حلوة.

قال المعصراوي لأصدقائه: إيه رأيكم نشتري معزة دلوقت، ونقعد على الاستراحة ونشويها؟ راقت الفكرة للجمع؛ في حين كان عاطف الفيومي يشتعل حماساً مما رأى الليلة..

(١٦)

استيقظ سامي ظهراً على صوت الزغاريد التي تملأ البيت من تحت؛ فعرف أن الصباحية قد أتت..

كان وائل وعاطف ينظران إلى القادمين في دهشة وهما يسألان سمير: إيه ده؟

قال لهما سمير موضحاً: الصباحية؛ هي الهدية اللي بتوديها أهل العروسة أول يوم بعد الدخلة، وفيه بلاد بتوديها تاني يوم، وبلاد تالت يوم.. وفيه بلاد بتوديها مرة واحدة، وبلاد بتكررها مرتين وتلاتة أسبوعيّاً.. وفي بلاد بتودي فاكهة وأكل ورز بالعربيات..

وأعرف بلد بتودي توك توك للعريس، يا يبيعه.. يا يركبه.. يا يركّبه لحد وخلاص..

وبلاد بتودي جاموسة –لا مؤاخذة يعني– أما أحلى بلد؛ فهي اللي صباحية العريس "تأشيرة إيطاليا"

يتجوز من هنا، وتاني يوم يجيبوا له التذكرة..

وائل: إحنا مضحوك علينا في الفيوم يا جدعان!!

– أما بلدنا بقى، شوية عربيات ربع نقل فيها رز وبطاطس وطماطم وعسل وجبنة، وشوية ناس شايلة على دماغها حلويات وفطير مشلتت.. وشوية قصب..

وواحد من أهل العروسة ماشي وراهم في الآخر؛ لأن فيه ناس بتخلع باللي هي شايلاه وتروح..

وائل: مفيش عروسة من البلد اللي بتسفّر إيطاليا دي؟

قبل أن يجيبه كان سامي قد نزل من شقته ليسلم على أهل العروسة؛ في حين مال سمير على أذنه قائلاً: شكلك مش محتاجني أبدل معاك بقى..

دفعه سامي وهو يبتسم.. قبل أن يأخذ عبد المولى على انفراد ويحكي له ما حدث من درويش أخوه،

ويخبره بأن لا يغضب مما سيفعله به.

* * *

في العصر.. ذهب سامي بمفرده دون صحبة أو ضجيج إلى بيت عم عالية.. إلى درويش؛ الشخص الذي سحره في ليلة عرسه.. فوجده جالساً أمام بيته، ونظر إلى سامي المتقدم نحوه متسائلاً..

فقال له سامي: أيوة أنا العريس، مش أخوه..

توترت ملامح درويش.

فقال سامي له: أهو الرعب اللي أنت فيه ده دلوقت اعتراف واضح منك..

قال له درويش في توتر بالغ: اعتراف بإيه؟

قال له سامي وهو يقبض على رقبته: بقى يا راجل يا ناقص تسحر بنت أخوك، دي بنت يا كلب، مالها ومال مشكلة بينك وبين أبوها؟

قال له درويش في اندفاع: أنت اللي كلب وابن كلب، وأنا مش خايف منك.

كان سامي في ذهنه عند ذهابه إلى درويش أن يؤول الأمر إلى بعض الإهانات للرجل؛ لينفث غضبه؛ ولكن عندما رد الرجل على الإهانة بإهانة أفظع منها، غاب عنه رشده، ولم يُفق من غضبه إلا على وجه أخيه وهو يحمله من فوق الرجل، والدماء تغطي الرجل..

قال له سامي في غضب هادر: سيبني أربّي ابن الكلب ده.

سمير: خلاص بقى ده قد أبوك وما ينفعش كده.

سامي: وهي عالية مش قد بنته لما يؤذيها؟

قال له سمير وهو ينظر في عينه: عشان خاطري أنا.

انصاع سامي أخيراً لأخيه، ومضى معه، كان كثير من أهل القرية مجتمعين؛ ولكن لم يجرؤ أحد على التدخل..

وبعد انصراف سامي مع أخيه، نهض درويش من على الأرض والدماء تنزف من أماكن كثيرة في جسده، ثم اتصل بالإسعاف الذي أتاه وذهب به إلى مستشفى الطوارئ..

وبعد إسعافه سألوه عن سبب الإصابات -وكان قد أصيب وتر الأصبع الصغير- مما سيتسبب في نسبة عجز في الإصبع؛ أي أن الأمر لم يعد جنحة؛ بل أصبح جناية.. فجاءه أمين شرطة ليقوم بعمل محضر، وبعد أخذ بياناته، سأله عمن قام بضربه؛ فأجابه: سمير خيري طالب في كلية الهندسة.

***

(١٧)

تطوّر أمر البلاغ الكيدي ضد سمير، وصدر أمر ضبط وإحضار له؛ مما اضطر سمير إلى الامتناع عن نزول القرية حتى يتنازل درويش عن بلاغه؛ ولكن درويش رفض كل لجان الصلح التي ذهبت إليه.. كان مصمماً على حبس سمير وتضييع مستقبله؛ تنكيلاً بأخيه سامي وزوجته وأبو زوجته.

وكان سامي قد ترك لهم الفرصة ليقوم بعض الأفاضل بالصلح؛ مهدداً إياهم بأنه لن يسمح بأن يتم حبس أخيه ولو ساعة واحدة.

وبعد مرور شهر كامل اتصل سامي على أخيه قائلاً: يا عم أنت ما صدّقت وعايش عندك.

سمير: لا والله ما إنتوا اللي قايلين لي متنزلش وبتبعتوا لي احتياجاتي.

سامي: طب انزل الأسبوع ده، وأنا مجهّز كل حاجة ومتخافش، ولا ملناش حق فيك زي رفيدة.

سمير ضاحكاً: إنتو هتورثوني بقى بالحياة، ولّا خايف عليّا من اللعنة.. على العموم، أنا خلاص هنزل الأسبوع ده ما دام أنت مظبط كل حاجة.

سامي: أيوة يا عم أمك عايزة تشوفك.. مع إني كل ما بتقول كده بقولها بصي في وشي أهو تلاقيه.

سمير: بوس لي إيديها والله يا سمسم وأنا جاي الأسبوع ده.

سامي: أنا بقيت سمسم؟ ده المعصراوي لو سمعك كده ممكن يعيّط شهر.

انفجر سمير ضاحكاً قبل أن يُنهي المكالمة.

وعند نهاية الأسبوع نزل سمير للقرية، واستقبلته أمه بدموعها لاشتياقها إليه.. وربت سامي على كتفه قائلاً: معلش يا أبو سمرة بسببي الموضوع ده حقك عليّا.

قال له سمير: بلاش هبل يااااض.

قبل أن يكمل في ضحك: طول عمري متبهدل بسببك.

قال له سامي: أوعدك إنها هتتحل قريب.

جلس سمير وسط عائلته ليتناول الغذاء معهم قبل أن يقول: والله اللمة دي وحشاني أوي.

فقالت له والدته: ربنا ما يحرمكم من بعض يا نور عينيّ، ولا يحرمنا منكم..

قبل أن ينظر سمير إلى أخيه ويقول: وإيه التظابيط اللي مظبطّها بقى يا عمنا؟

أجابه سامي: طلعت لك بدل فاقد من بطاقتي، وهتخليها معاك، وأنا بالليل كده كده هقضي سهرتي بره.. ولو المباحث جات بالليل هتطلع لهم بطاقتي.

قال له سمير: دماغك دي تشتغل في حتت شمال بس.

قبل أن يجيبه سامي، رن هاتفه ليجد رقم المعصراوي فيجيب بسرعة: خير يا ابني.

أنصت باهتمام إلى المعصراوي قبل أن يغلق الهاتف وهو يقول لأخيه: ده المعصراوي خليته قاعد على الكوبري يشمشم على الحكومة.. واللي عملت حسابه لقيته.. درويش شم خبر إنك هنا وبلّغ..

أنا هشغل الحكومة لما تخرج من الباب الوراني.. خد شنطتك وروح الاستراحة على البحر، هتلاقي المعصراوي وهو هيتصرف.. معلش يا سمير على البهدلة دي.

أجابه سمير: بلاش خيابة يا ابني أنت ، وهو فيه فرق بينا.

هز سامي رأسه قبل أن يقول له: أوعدك هتتحل الأسبوع ده.

ثم ذهب ليقف أمام باب بيته منتظراً بوكس الشرطة، وما إن رآه حتى أطلق لساقيه العنان مبتعداً عن بيته؛ فاندفع بوكس الشرطة واقعاً في الفخ

يجري خلف سامي.. وما إن اقترب منه البوكس حتى توقف عن الهرب مرة واحدة رافعاً يده فوق رأسه قائلاً: إنتو بتجروا ورايا أنا ولا إيه يا باشا؟

نزل ضابط من البوكس واندفع معه جنوده نحو سامي قبل أن يهتف الظابط: أيوة بنجري وراك أنت يا سمير.

قال له سامي وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة ساخرة: بس أنا مش سمير، وأخرج بطاقته من جيبه قبل أن يقول: اتفضل يا باشا.

أمسك الظابط البطاقة قبل أن يعقد حاجبيه وهو يقول: ولما أنت مش سمير بتجري ليه؟

قال له سامي: أنا متجوز قريب، وخايف وزني يزيد، وكل مشاويري باخدها جري.

ناوله الضابط البطاقة قبل أن يعود لسيارته، وسامي يقول لهم: طب مش هتشربوا حاجة.

في تلك اللحظة كان سمير مع المعصراوي عند الاستراحة حسب الخطة التي وضعها سامي للطوارئ.. وهي أن يستقلا مركب ربيع الصياد؛ ليذهب سمير إلى ديسط، ومنها إلى شربين، ثم إلى موقف سيارات القاهرة.. مبتعداً تماماً عن أي احتمالات الوقوع في يد الشرطة.

***

اتصل سامي بالمعصراوي على موبايله قائلاً: خير يا ابني بقيت فين؟

المعصراوي: أخوك خلاص ركب والحمد لله، واستنيت لما العربية كملت ومشت بالسلامة.

سامي: تمام يا حبيبي.. أنا معاه على الموبايل ومتابعه.. أنت فين دلوقت؟

المعصراوي: راجع أهو بمركب عمك ربيع.

سامي: طب تعالى عشان عايزك.. هتلاقيني في البيت.

بعد دقائق من المكالمة كان المعصراوي مع سامي في بيت الأخير الذي بادره قائلاً: ركز معايا أوي يا معص.. لازم نخلي درويش ده يعمل محضر صلح بكرة بأي طريقة.

المعصراوي: تحب نخطفه ونحطه ليلة كاملة في أي حتة متكتف إيدين ورجلين ومتغمي للصبح؟

سامي معترضاً: لا.. ولو كل البلد راحت له مش هيتصالح، الراجل ده ماشي بدماغ مراته، وهي اللي بتحركه.. عاملة له حبل ورابطاه في مناخيره وبتشده زي البهيمة.. هتقول له يمين يبقى يمين، شمال يبقى شمال..

قبل أن يقول: ما هو فيه ناس بتقول لك إن لما المصريين خرجوا مع فرعون ورا سيدنا موسى

كان كل اللي غرقوا عبارة عن الرجالة والشباب والفرسان، واللي فضل ماخرجشي كانوا العواجيز أو المعاقين أو الخدامين؛ فالستات في البيوت اتجوزت العاهات دي.. آه هو جوزها بس هي أحسن منه، وهو عارف كده، وهي عارفة كده.. ومن هنا جه بقى إن معظم الستات عندنا تلاقي صوتها عالي على اجوازها.

نظر إلى المعصراوي وقد ارتسمت على وجهه علامات عدم الفهم: مين قالك الكلام ده يا كبير؟

سامي: أكيد مش فرعون يا أبو المفهومية.. المهم خلينا في موضوعنا.. عايزك بقى تقعّد لي واد عند بيت درويش ده من بعد المغرب.. وأول ما مراته تخرج يرن لك؛ تكون أنت عند محول الكهربا، وأكون أنا مستنيها على ناصية.. وهوب أرن لك.. تقفل الكهربا.. أكلمها دقيقتين في الضلمة، وتقوم أنت مرجّع الكهربا تاني.

المعصراوي: وإيه لزوم قطع الكهربا؟

سامي: دي البهارات يا حبيبي.

بعد بضع ساعات من هذا الحوار كان سامي منتظراً زوجة درويش على ناصية أحد الشوارع الضيقة.. وقبل أن تقترب منه كانت الكهرباء قد انقطعت، وغرقت القرية في ظلام دامس..

وفجأة وجدت أحدهم ينادي عليها قائلاً: سامية!!

التفت إلى مصدر الصوت.. قبل أن يقذف على وجهها سائلاً كان معه في زجاجة لم تعرف ماهيته،

وقبل أن تصرخ كان قد كتم أنفاسها بيده، ودفعها إلى الحائط، واقترب منها قائلاً: أنا سامي.. شايفة الصدف؟ سامي وسامية! لو أخويا اتحبس ساعة واحدة.. الإزازة دي مش هتبقى مية من الحنفية زي المرة دي.. المرة الجاية هتبقى مية نار.

ثم اقترب منها أكثر لترى عينيه الغاضبتين، قبل أن يهتف صارخاً: فاهمة.

هزت رأسها في خوف..

أكمل قائلاً: أنا هشيل إيدي من على بقك، ولو في بلدكم دكر وعارفة إنه هيحميكي مني لما تصرخي ابقي صرّخي.. بكرة جوزك يروح يتنازل وإلا إنتي اللي في وشي، وتعيشي عمرك مشوهة..

مشاكلكم إنتو وعبد المولى حلوها بعيد عني وعن مراتي وأخويا.

قبل أن يمسك بموبايله قائلاً: خلاص نور الكهربا بقى.

وانصرف وهي تتنفس بصعوبة.. وانتفض جسدها في رعب حين أضاءت الكهرباء.

***

(١٨)

١٣ أغسطس ٢٠١٣

في غرفتهما السابقة.. دخل سامي على أخيه الغرفة فوجده مستلقياً على السرير؛ فنظر إليه سامي ضاحكاً، وهو يقول: تصدّق هنا أحسن من فوق..

قال له سمير ساخراً: اختشي يا سي أحمد حد يشوفنا.

جلس سامي بجوار أخيه قبل أن يسأله: إنت أخبارك إيه؟ انشغلنا عن بعض الفترة اللي فاتت..

سمير: حال الدنيا بقى..

سامي: أنت مسافر إمتى؟؟

سمير: همشي أهو

سامي: حتى الإجازة كمان مش ناوي تقعدها معانا.

سمير: النهاردة التلات.. ويومين هتلاقيني هنا معاك.

سامي: طب أنا كنت عايز أدردش معاك بخصوص موضوع رفيدة.

مال سمير برأسه تجاه أخيه قائلاً: خير؟

سامي: عايزك تحبها ماشي، تعجب بيها ماشي.. إنما ما يكونش في بالك إنك هتتجوزها.

أجابه سمير وهو عاقد حاجبيه: تعرف عني كده يا حبيبي؟

سامي: لا، وعشان كده بدردش معاك.

سمير: بس بصراحة، وبيني وبينك، أنا بحبها بجد، وإن شاء الله هتجوزها.

سامي: وهتعيشوا فين؟ هنا؟ رفيدة الكلاس دي هتعيش في كفر البرامون.. بناموسها وترابها وصوت الضفادع؟ أشك.. يبقى هتعيشوا في القاهرة.. فكرت أنت في إنك تعيش في القاهرة.

قاطعه سمير: اوعى تقول لي اللعنة.

سامي: يا عم سيبك من اللعنة.. حتى لو قعدت في القاهرة كده كده كل شهر بالكتير هتبقى هنا.

سمير: برضه؟ ما فيش فايدة.

سامي: طب فكرت إننا كده يبقى هنبعد عن بعض؟! ثم ماشي.. بعدت عننا أنا وأبوك وأمك وعشت هناك.. رفيدة دي مش طبعنا، ولا طباعك إنت بالذات.. يعني ممكن تكون بتسلم على قرايبها بالحضن، ومش

قاصدين حاجة ولا نيتهم وحشة.. بس إنت ترضاها؟ لو رضيت يبقى مصيبة.. وإن مرضيتش يبقى هتعيش في نكد.

سمير: إحنا بنحب بعض وهنتغلب على الحاجات دي.

سامي: إنتو مبتحبوش بعض، إنتو انبهرتوا ببعض، كل واحد فيكم حاجة جديدة على التاني.. شايفاك فلاح، وفيك صفات أول مرة تشوفها، وأنت برده كده.. فاكر ساعة ما دافعت عن الواد والبنت، هي شافتك سوبرمان وشهم.. مع إنك اتشجعت بيّا وبأصحابك.. ولو وقت تاني ما كنتش عملت كده.. ولو كنت أنت اتعورت أو أنا، كان هيبقى تهور مش شجاعة.. يا ابني أنا عايز أجوّزك واحدة زي عالية.. يمين يمين شمال شمال.. تتجوز واحدة ترفعها فوق مش ترفعك هي للحتة بتاعتها، وتبقى عاملة لك جمايل..

سأله سمير: وأنت بتتجوز؛ حد شار عليك؟

سامي: لا استنى.. قعدنا في الأوضة هنا، وقلت لك: هتجوز قبلك موافق؟ قلت لي طبعاً موافق وطاير م الفرح.. سألتني مين؟ قلت لك عالية.. شكرت فيها وفي عيلتها... صح؟

سمير: بالحق أنت خلصت موضوع عمها إزاي؟

سامي: مفيش غير إنهم شافوا العين الحمرا فاتنازلوا..

ثم قال له وهو منصرف: متفكرش إنك غيّرت الموضوع و أنا نسيت.. الموضوع ده منتهاش.. ومنتاش متجوزها يعني مش متجوزها!

انصرف سامي قبل أن يتصل على المعصراوي قائلاً: أنت فين يا ابني؟

رد عليه المعصراوي: أنا هنا يا كبير.

سامي: طب تعالى هناك عايزك.

يضحك المعصراوي وهو يقول: آجي لك فين بجد؟

سامي: عارف الواد المتولي؟

المعصراوي: الواد اللي كنت ضربته ده لما عاكس قريبتك؟

سامي: أيوة.. قابلني هناك.

المعصراوي: أجيب الرجالة حاضر، وأقابلك هناك.

المعصراوي: رجالة إيه يا أهبل، إحنا مش رايحين نتخانق..

المعصراوي: أمال يا زميل؟

سامي: رايح أصالحه..

المعصراوي في دهشة: إيه؟

ظلت الدهشة تعلو وجه المعصراوي، إلى أن التقى بسامي وطرقوا باب المتولي الذي توتر حينما لمح وجه سامي والمعصراوي، وجاء والد المتولي، وهو يسأل سامي في قلق: خير يا ابني عايز إيه تاني؟

قال له سامي في ابتسامة مطمئنة: طب على الباب كده يا حاج ولا ندخل؟

قال له أبو المتولي في تردد: اتفضل يا بني..

دخل سامي والمعصراوي يتبعه؛ وما إن جلسا حتى بادرهم سامي قائلاً: شوف يا حاج من غير مقدمات، أنا جاي النهارده أقول لكم كلمتين..

الجميع يترقب، ولم ينطق إلا والد المتولي: اتفضل يا ابني.

سامي: إذا كنت غلطت في ابنك؛ فحقك على يا متولي، وإذا كنت أنت غلطت فأنا مسامح، أنا مش عايزكم تكونوا زعلانين، ولا تقابلوني تبصوا الجهة التانية.. إحنا بلد واحدة وأهل، وبكرة هحتاجك وبعده هتحتاجني أنت.. أنت عاكست قريبتي وحصل، وأنا ضربتك وحصل..

توترت ملامح المتولي عندما قال سامي موضوع المعاكسة؛ في حين انعقدت ملامح أبيه أكثر وهو يقول: عاكس؟

قال سامي: خلاص يا حاج الموضوع خلص.. المهم صافي يا لبن؟

قال له والد المتولي: حليب يا قشطة يا ابني.

نظر سامي إلى متولي الذي ما زال صامتاً، وقال: يا بني قوم بقى وفكها، إحنا لا بينا ورث ولا تار يبقي ليه نتخاصم؟ وأنا جاي لك لحد بيتك.. ثم أردف قائلاً: ولا عايزني أضربك تاني؟

تدخّل والده في الحوار: ما تقوم بقى ياض أنت سلم على الأستاذ سامي.

نهض متولي واحتضن سامي بشدة الذي هتف مازحاً: إيه يا عم أنت عندك كبت ولا إيه؟

ثم نظر إلى والده قائلاً: شوف له عروسة بدل ما يعمل في ولاد الناس كده.

ضحك الجميع حتى نساء البيت المترقبات خلف الأبواب..

فقال سامي قبل أن ينصرف: جينا ومشينا من غير شاي..

قال أبو متولي في إحراج: والله عدت علينا دي، طب والله لتستني تشرب حاجة.

قال سامي: والله مستعجل يا حاج، تتعوض المرة الجاية.. عارف إن البيت كان متوتر وعمال مراقبنا من ورا الأبواب مستنين جنازة يشبعوا فيها لطم.. ما أنا عارف، زي زينب عندنا بالظبط..

ضحك الجميع، ثم انصرف سامي وخلفه المعصراوي الذي قال له: فهّمني بقى يا كبير!!

قال له سامي: لا يا معصراوي.. دي مش حركة صياعة.. أنا النهارده إن شاء الله هعدي على كل اللي زعلانين مني.. الواحد عايز ينام كده، ومحدش زعلان منه.. أنا كنت لسه متردد في الموضوع ده بس لما صالحت الواد متولي، حسيت براحة، ولازم أنام النهارده إن شاء الله، ومحدش في أم البلد دي زعلان مني.. واللي مش هيصالحني هعور أمه.

وهنا التفت سامي على صوت أذان صلاة العصر؛ فقال: تعال نصلي العصر الأول.

قال معصراوي: ولا موضوع الصلاة اللي دخلت لنا فيه، أنا كده هشوف لي زعيم عصابة جديد.

قال له سامي: شوف لك واحد يهودي بقى، يلا بقى نتوضا.

***

بعد انتهاء الصلاة قال له ياسر: علي فين بقى يا عم الشيخ؟

قال له سامي وهو يبتسم: هنروح الأول لدرويش نصالحه، وبعدين نروح عند حمايا..

قال له المصراوي: طب خلعون أنا بقى بعد درويش.

أمسك يده سامي قائلاً له: لا لا لا، متمشيش تعالي معايا برضه.. هنقعد عند حمايا نشرب شوية شاي من إيد أم عالية ونمشي..

بعد ذهابهم إلى درويش عم عالية، ذهب معه المعصراوي أيضاً إلى بيت عبد المولى، الذي ما إن رأي زوج ابنته حتى تهللت أساريره فرحاً، وقال له: إيه النور ده..

قال له سامي وهو يشير للمعصراوي: ما أنا جايب معايا محول كهربا بحاله.

ضحك المعصراوي وهو يقول: طب اوعى بقى لأكهربك.

دعاهم عبد المولى للدخول؛ لكن سامي رفض وقال: خلينا قاعدين هنا بره في الطراوة.. بس اعمل لنا كوبايتين شاي حلوين..

ونظر إلى المعصراوي قبل أن يقول: وعندك إيه يتعمل ساندوتشات؟

قال له عبد المولى: عندي حتة جبنة قديمة مع شوية جرجير هعملهم لكم جوز ساندوتشات يكبسوا على مراوحكم.

قال له سامي: أنا مش عايز هات الاتنين للمعصراوي.

كاد المعصراوي أن يرفض؛ فقال له سامي: بس يااااض بطّل هبل.

لم يمضِ الكثير حتى جاءت الصينية بالشاي والساندوتشات.

وقال له عبد المولى: وأخبار الباشمهندس سمير إيه؟

قال له سامي: بخير الحمد لله.. على فكرة يا أبو عالية.. أخويا ده بدالي؛ يعني لو حصل لي حاجة كده أو كده، أو سافرت، أو اتحبست.. هو مكاني..

قال له عبد المولى: يا ابني ربنا يبارك في عمرك..

سامي: محصلش حاجة برضه، أهو كلام بندردشه.. مين عارف.. ولّا إيه يا معصراوي؟

قال له معصراوي: بعد ما أخلص أكل أبقى أفوق لك..

سامي: طب كلّمنا وأنت بتاكل.

معصراوي: لا طبعاً، لازم أركز واستطعم.

سامي ضاحكاً وهو يربت على ظهره: كل وركّز لأنك هفتان اليومين دول.

***

(١٩)

في طريقه إلى موقف السيارات بالمنصورة للسفر إلى القاهرة، كان سمير يتصبب عرقاً، ويشعر بأن حقيبته تزن أطناناً.. درجة الحرارة تكاد تجعله يخرج من ملابسه كلها.. والأهالي أنفسهم كانوا في حالة لأول مرة تراهم فيها..

كانت مصر كلها منقسمة.. تشعر بأن هناك شيئاً حدَث للنسيج الوطني.. أصبح المصريون أكثر عداءً لبعضهم البعض.. وأقل تحملاً..

كان سمير قد أنهى دراسة العام الأول من دراسته، واتفق هو ووائل وعاطف على تأجير سكن خاص بعيداً عن المدينة الجامعية وتحكماتها.. راقت الفكرة لسمير كثيراً.. فسيستطيع أن ينتهي من التدريب الصيفي والتربية العسكرية.. وأن يكون بجانب رفيدة في الصيف..

كانت الشقة موازية لشارع الكلية، وصاحبها عم عادل جرجس صاحب المكتبة الذي يتعاملون معه.. وكانت تكلفتها ٣٠٠ جنيه ١٠٠ للفرد.. ولم يكن مبلغاً كبيراً.. ويستطيعون أيام الدراسة الاشتراك في وجبة المدينة الجامعية تحت بند خارجي.

وفي الموقف.. وجد سمير سيارة بيجو ٧ راكب لا ينقصها إلا راكب واحد.. وبالطبع الكل اختار مكانه وكرسيه، والمطلوب منه أن يجلس في

المكان الوحيد المتبقي، وهو الكرسي الأوسط في السيارة، ويجلس بين رجل وفتاة..

جلس سامي متململاً ضجراً، حتى دخول السيارة على مشارف القاهرة، وتم تجميع الأجرة، وقال السائق أن آخر محطة هي عبود –وليست رمسيس كما يفترض– وسيتوقف فيها.

سمير: مش أنت المفروض رايح رمسيس يا اسطى؟

السائق: رمسيس إيه يا أستاذ اللي أروحها في القلق ده؟

سمير: قلق إيه يا اسطى؟

السائق: اعتصام رابعة يا أستاذ اللي عاملينه الخرفان..

سامي: يا عم ومال رمسيس ومال الاعتصام؟

السائق: أنا آخري عبود يا أستاذ.. قالها وهو يركن بسيارته على جانب الطريق..

وهنا تتدخل بعض الركاب قائلين للسائق: اللي تشوفه يا اسطى، ثم أشار أحدهم لسمير بمعنى أن كبّر دماغك.

سمير: بس دي سلبية.

لم يجبه الرجل فكتم سمير غيظه وهو يضغط على أسنانه، ويتمنى أن يقابله هذا السائق مرة أخرى مع أخيه؛ ولكن عليه الآن أن يدفع الأجرة وهو يحسبن في سره.

***

نزل في عبود هو وبقية الركاب، وحمل حقيبته على كتفه قبل أن توقفه الفتاة التي كانت تجلس بجواره قائلة: معلش يا أستاذ، ممكن طلب؟

نظر إليها سمير وقال لها: أؤمريني.

قالت له: أنا من المنصورة وكنت راكبة معاك العربية ساعة الخناقة..

قال لها سمير: أيوة أخدت بالي.. خير؟

قالت الفتاة في تردد: لو واحدة نازلة القاهرة، وما تعرفشي فيها حاجة وعايزة تشتغل، تروح فين؟ أو تعمل إيه؟

قال لها سمير: تشتغل إيه بالظبط، ومؤهلاتها إيه؟

قالت الفتاة: أنا دبلوم فني، وممكن أشتغل أي حاجة؛ بس ألاقي لقمة وهِدمة وسرير..

قال لها سمير: ممكن أتطفل عليكي وأعرف قصتك؟

نظرت له الفتاة في تردد حذر، قبل أن يقول لها: أنا مش بعاكس والله، وممكن أساعدك.

قالت الفتاة: وأنا عارفة إنك محترم، وع الأقل أنت بلدياتي وصعب تنهش في لحمي.. أنا يا أستاذ أبويا عايز يجوزني لابن أخته، واد والله وهو بيتكلم بيريل من بقه.. أنا مش بخيّل على خلقة ربنا؛ بس أنا نفسي مش قابلاه؛ بقعد معاه بحس إني مش طايقاه؛ فما بالك بقى لما أفتكر إني هبقى مراته..

هو حرام إني يكون لي رأي؟

قال لها سمير: وبعدين؟

قالت له الفتاة: أنا رفضت..

أبويا نزل ضرب فيّا في كل حتة في جسمي، وقال لي: يا تتجوزيه يا هموتك خالص..

كل القصة ورث أخته اللي عايز ياخده بالجوازة دي، ومش همه بنته.. غفّلته وهربت على مصر

هشتغل وهكمل تعليم واتجوز على مزاجي.. أو ما أتجوزش حتى..

كانت الدموع قد غلبتها وهي تحكي قصتها؛ فقال لها سمير مهدّئاً من روعها: طب تعالي بقى الأول أعزمك على طبق كشري حلو، أحلى طبق كشري تاكليه هنا لما تيجي عبود..

حاولت الفتاة الرفض؛ فقال لها سمير مازحاً: ما تخافيش مش هتدفعي..

ذهبت معه الفتاة.. وبعد انتهائهما من الأكل، أخذها سمير إلى محطة مصر، ثم قطع تذكرة للمنصورة، ونظر إليها قائلاً: شوفي أنا معرفش اسمك، ويمكن ربنا حطك قدامي لسبب.. دي تذكرة رجوعك لبلدك وأهلك.. أي مشكلة ممكن تتحل، كلمي خالك، كلمي عمك، عمتك أو ابن عمتك.. كلمي أي حد في البلد.. حاولي تقنعيهم برأيك؛ لكن اوعي تطفشي أو تسيبي بيتك تاني، إنتي لسه أول يوم بره؛ لكن لو نمتي ليلة واحدة بره الوضع هيختلف، اوعي تفتكري إنك هتبقي آمنة هنا.. القاهرة دي مبترحمش.. محدش يعرف حد، ومحدش فاضي لحد.. والمحترم فيها مش هيقدر يحميكي.. صدقيني آخرك أسبوع هنا، وهتلاقي نفسك بين ديابة بينهشوا في لحمك..

ثم نظر إليها قائلاً: هاا قلتي إيه؟

قالت له: افرض جوزوني غصب عني؟

سمير: حتى لو جوزوكي غصب عنك، هتكوني معاه بالحلال؛ لكن هنا أوعدك هتكوني مع أوحش منه وبالحرام، وغصب عنك برضه..

تخيلت الفتاة ما ينتظرها هنا في القاهرة، وما سيكون مصيرها وسمير يكمل: اسمعي كلام واحد ربنا بعته لك.

قالت له: موافقة خلاص، هرجع.

أخذها سمير من يدها ثم صعد إلى القطار متفرساً في الوجوه إلى أن وجد رجلاً تجاوز الخمسين عاماً، وبجواره سيدة تظهر كأنها زوجته؛ فقال له: السلام عليكم يا حاج..

الرجل: وعليكم السلام يا بني..

سمير: رايح المنصورة يا حاج؟

الرجل: إن شاء الله يا بني.

مد سمير يده بالتذكرة، ثم أمسك يد الفتاة وقال لزوجة الرجل: إمسكي دي كده يا حاجة

وقال للرجل: دي زعلانة من أهلها، وكانت مش عايزة تروح.. معاك تذكرتها وهي معاك أهي.. اعرف قصتها منها ووصّلها بيتها، وقول لهم أي حاجة، شوف الصالح اعمله.. دي أمانة ويوم القيامة هسألك عملت إيه في الأمانة يا حاج..

ثم انصرف مغادراً القطار.

***

(٢٠)

صباح يوم الأربعاء ١٤ أغسطس ٢٠١٣

كانت إحدى عربات الكارو التي تبيع الخضراوات تمرّ من أمام بيت خيري.. وأثناء خروجه وجده سامي يلقي عليه التحية؛ فقال له سامي مازحاً: بس حلو الميكرفون ده.. ينفع بدل ما عبد العاطي بيستغل فينا، وريني كده..

أمسك سامي الميكرفون مقلّداً صوت عبدالعاطي: بسم الله الرحمن الرحيم.. انتقل إلى رحمة الله، فقيد الشباب وزينة الرجال.. سامي خيري.. والدفنة بعد صلاة المغرب..

وهنا خرجت هياتم من بيتها لتقول له: يا ابني فال الله ولا فالك..

سامي: ده أنا بجرب الميكرفون يا هياتم.

هياتم: يا ابني اصطبح وقول يا فتاح يا عليم.

سامي: يا فتاح يا عليم.. بس لو مت عايزك يا هياتم تنامي قدام النعش، ويغمي عليكي.. عايزك تعمليلي زفة محصلتش، وتصرّخي وتقولي: يا حبيبي يا حبيبي.

ردت عليه هياتم، وهي تضحك: حبك برص و ١٠ خرس.

***

استيقظ سمير على خبر فض اعتصام رابعة.. وأول ما جاء في ذهنه رفيدة؛ فاتصل بها مسرعاً، ولم ترد إلا في المرة الرابعة؛ فقال لها في لهفة: إنتي فين يا فوفو؟

قالت له: أنا في رابعة، ومش لاقية بابا ، والدنيا هنا صعبة أوي..

أخذ سمير يرتدي ملابسه وهو يقول: هجيلك حالاً.

وذهب مسرعاً ليغتسل ثم خرج مهرولاً.. أوقف أول تاكسي ليذهب إلى حبيبته.. ولم يكتشف نسيان موبايله في الشقة إلا في منتصف الطريق.. وبرغم ضيقه الشديد من نسيانه؛ إلا أنه أقنع نفسه بتركه قائلاً: مش مهم، ما انا كده كده حافظ رقمها.

وصل سمير إلى خارج الاعتصام ثم اتصل برفيدة من أحد التليفونات بسنترال؛ آملا أن ترد على الرقم الغريب.. وردت رفيدة بعد ٥ محاولات.. وعرفت أنه حبيبها..

سألها عن كيفية الدخول، وقالت له بعد سؤال أبيها: بابا بيقول ممكن تدخل من عند المستشفى الميداني من عند شارع الطيران من ورا المساكن، عند المدرسة كده..

كان سمير بالطبع لا يعلم عن تلك الأماكن شيئاً؛ إلا أنه بعد السؤال والمحاولات الحثيثة.. استطاع الدخول وبحث عن رفيدة التي قالت له بأنها ستنتظره أمام المنصة.. ووجدها هناك..

وما إن رأته حتى سألته ممتنة: إيه اللي جابك؟

قال لها: مستحيل أسيبك هنا لوحدك، أمال فين سمية؟

أجابته: ماما منعتها.. لكن أنا خرجت غصب عنهم.

قال لها متوسلاً: يلا نخرج من هنا..

قالت له: ده بابا هنا، وهو مستحيل يخرج ويسيب الناس، متمسك برأيه أوي.

ذهب إليه سمير قائلاً: ممكن يا أستاذنا ناخد بنتك ونخرج..

نظر إليه والدها في استفسار؛ فقال له سمير: أنا زميلها، ومالوش لازمة وجودها.

قال له الوالد: أنا مش هتخلي عن القضية.. ومش هبيع بلدي.

قال له سمير: مش هنبيع حاجة.. إحنا بنشتري بنتنا.

قال له والدها: تعالوا وأنا أخرجكم من هنا، وروحي ع البيت طمّنيهم.

قالت له رفيدة: مستحيل أمشي وأسيبك.. مستحيل.

واضطر سمير للمكوث معهم؛ فهي لن تترك والدها، وهو لن يترك حبيبته

***

رن تليفون سامي، وعلي الشاشة ظهر اسم المعصراوي واضحاً ففتح عليه سامي قائلاً: خير يا ابني؟

قال له المعصراوي في اندفاع: هو سمير بيعمل إيه في رابعة؟

سامي: رابعة إيه دلوقت؟! مين قال لك الكلام ده؟!

معصراوي: أمي شافته على الجزيرة ونادت لي عشان أتأكد.

سامي في انزعاج شديد: يا ابني أنت متأكد م الكلام ده؟

المعصراوي: آه والمصحف.

شفته بعيني ولابس القميص اللي أنا وأنت شارينه العيد اللي فات كمان.

سامي: طب اقفل اقفل.

أغلق سامي الخط ليتصل على رقم أخيه وهو يقول في نفسه: يا رب سلم..

لم يجب سمير على اتصال أخيه.. كرر سامي الاتصال عدة مرات حتى فُتح الخط.. وهنا تنهد سامي، وهو يقول في لهفة: أنت فين يا ابني؟!

أجابه صوت مختلف: أيوة يا سامي.

سامي وقد اسودت الدنيا في وجهه: مين معايا؟!

أجابه الطرف الآخر: أنا وائل يا سامي.

سامي في توجس: وائل! أمال سمير فين؟

وائل: معرفش.. أنا لسه صاحي على رناتك.

سامي: طب فيه ناس شايفينه في رابعة.. والشرطة هناك دلوقتي.

وائل: وإيه هيوديه رابعة.. قبل أن يقول في صوت منخفض: رفيدة..

سامي: آه ممكن راح هناك لرفيدة، لو عرفت حاجة رن لي على طول ومتفتحش على أبوه وأمه لو رنوا.

وائل: ماشي، وأنت هتعمل إيه؟!

سامي: هاجي طبعاً رابعة.

واتصل بالمعصراوي: هات بطاقتك وتعالى؛ لأننا رايحين رابعة.

المعصراوي: هناخد عربيتك؟

سامي: لا، هناخد عربية مخصوص عشان نعرف نسيبها في أي حتة وما نقلقش عليها..

***

كانت مصر كلها مشغولة بما يحدث في رابعة.. بل كان هذا الميدان محور الأحداث في تلك الساعات على مستوى العالم كله..

كانت البيوت في مصر المحروسة كلها تتابع ما يحدث في رابعة.. الكل يتابع.. ولكن ليس بنفس الميول والاتجاهات.. فهناك من يتابع الحدث من الجزيرة، ويرى الإخوان ومؤيديهم مظلومين ويُقتلون وهم في اعتصام سلمي، بمطالب من حقهم التعبير عنها.. وهناك من يتابع من القنوات الخاصة الفضائية ويرى أن الاعتصام مُسلح ويقتل رجال الشرطة، وأن من يسقط من الإخوان؛ فهو بأيدي الإخوان أنفسهم..

كان الوحيد الذي لا يعنيه أي شيء في تلك الآونة هو سامي.. كان لا يعنيه من الظالم ومن المظلوم.. من يقتل من؛ بل يعنيه أن يجد أخاه.. وبحث عنه، وفكر أن يصعد إلى المنصة لينادي عليه، كان يخشى أن يصيبه مكروه.. وكان والده ووالدته لا يعلمان شيئاً عن سفره.. خشي أن يقول لهما شيئاً، وذهب للمستشفى الميداني وهو يبحث عن أخيه..

وفجأة.. وجده مستلقياً على الأرض مصاباً في قدمه وبجواره رفيدة..

- سمير!

هتف بها بكل لوعة الدنيا..

التفت إليه سمير ورفيدة في دهشة، قبل أن يقول له سمير في ذهول: أنت جيت هنا إزاي؟ وعرفت مكاني إزاي؟ وعرفت إن أنا هنا أصلاً منين؟

قال له سامي في صرامة بالغة: هقولك بعدين، الأول نخرج من هنا.

قال له سمير: وأنا مش هخرج من غير رفيدة..

أمسكه سامي من يده قبل أن يرفعه على كتفه في حركة مفاجئة وسريعة، وهو يقول لرفيدة في صرامة: هتيجي؟!

رفيدة: أنا هستنى مع بابا.

قال لها سامي: طب إذا كان كده يبقى ناخده لمستشفى برة بقى، ولا إيه رأي حضرتك؟

تغاضت رفيدة عن لهجته، وهي تقول لسمير النائم فوق كتف أخيه: سمير فعلاً لازم تروح مستشفى متخافش عليّا أنا هروح أقنع بابا إننا نمشي..

لم ينتظر سامي الرد؛ بل أخذ أخاه وهو يحمله فوق كتفيه، وانطلق خارجاً..

كمشهد من فيلم سينمائي عالي الإخراج والجودة.. طلقات الرصاص تتطاير كالمطر في كل مكان

رائحة الحريق تزكم الأنوف.. فكل شيء يحترق.. كل شيء.. وكأنه يوم القيامة.. وكأن جهنم قد سيقت للظالمين وللعصاة.. تتداخل أصوات الصراخ مع أصوات السرينة المزعجة التي لا تتوقف..

يرى الناس أمامه كأنهم أشباح خرجوا لتوهم من القبور بسبب آثار الدخان على وجوهم.. تختلط الأصوات في أذنه.. يجري كبطل أسطوري في ملحمة إغريقية.. يجري كما لم يجرِ من قبلُ.. يحمل شخصاً فوق كتفه.. لا يعبأ بمن يعترض طريقه.. يقذف أحدهم بيده الخالية بعيداً عن طريقه.. ويراوغ آخر..

وبرغم ما هم فيه إلا أن منظره قد آثار إعجاب كثيرين ودهشتهم؛ لإصراره على الوصول إلى هدفه برغم حمله الثقيل؛ بل إن تلك اللقطة قد أثّرت في كثيرين عندما التقطتها إحدي العدسات، وتم عرضها بعد ذلك..

وفجأة يسقط سامي.. أصابته رصاصة مجهولة الهوية.. يسقط بحمله أرضاً، ويسقط سمير بعيداً عنه.. ويزحف سمير بقدمه المصابة نحو أخيه؛ ليجد الدماء تسيل من فمه، وهو يقول له: عارف الفزورة اللي أبوك قالها لنا زمان (لو واحد راكب قطر وعلى يمينه رز وعلى شماله قمح يعرفهم إزاي؟).

سمير: مالك يا سامي؟ الدم ده منين؟

سامي: الرز والقمح ما بيتزرعوش مع بعض.. ده شتوي وده صيفي.. الاتنين اللي ع اليمين واللي ع الشمال محصول واحد، يا رز، يا قمح.. على حسب توقيت زراعتهم.. أيوة شبه بعض أوي، ويمكن توأم؛ بس كل واحد وله أوان.. وده أوانك أنت يا سمير.

سمير وقد أحاط أخاه بذراعيه: مالك يا روح قلبي.. انطق.

سامي: لولو يا سمير....

ويغمض عينيه.

***

(٢١)

تأتي إليـه منتقبـة تحمـل سماعـة طبيـب، تجلـس بجـوار سـامي مسـرعة لتتفحصـه، وينظـر إليهـا سمـير في لهفـة قبـل أن تأتي أخـرى لتسـأل الطبيبـة: محتاجة إيه يا دكتورة لمياء؟

تنظـر إليهـا الـدكتورة لميـاء نظـرة لا تحتـاج لتفسـير وهـي تهـز رأسـها في أسف.

هنا هتف سمير قائلاً: يعني إيه النظرة دي.. ها... قصدك إيه فهميني؟

قالت له لمياء في أسي: أخوك الله يرحمه..

قاطعها قائلاً: إياكي تقولي كده تاني .. فاهمة؟ لأقتلك بأيدي.. أخو مين اللي يموت يا هبلة إنتي.. أخويا يموت إزاي؟ وليه؟ أخويا أصلاً المفروض مكانش هنا، ولا هيموت عشان ده، ولا ده.

قالت له لمياء: أخوك مات لله، وعشان قضية بيدافع عنها.

أجابها سمير بنفاد صبر: امشي من قدامي امشـــــي.

قبل أن يحمل أخاه وهو يعرج ويذهب به ليختبأ خلف جدار..

ينظر إلى أخيه متسائلاً: إيه اللي جابك؟ وعرفت إزاي إني هنا؟ ســامــي!!! إيه اللي جابك؟ أنت بتعمل مَكَارة عشان تخضني عليك.. صح؟ بقى معقول حتة رصاصة تموتك؟ طب مين هيزفني في فرحي؟ هاا؟ مين؟ طب مين هيتخانق عشاني لما حد يؤذيني؟ بقى هتموت بجد وتسيبني وحيد؟ ده أنت مش أخويا يلا.. ده أنت أنا، نصي التاني.. طب أقول لأمك إيه وأنت عارف قد إيه بتحبك.. دي بتحبك عني.. ومكنتش بزعل وربنا.. هي بتحبنا إحنا الاتنين؛ لكن أنت وشقاوتك وخفة دمك كان ليك معزة خاصة وكنت بفرح؛ لأنك أنا..

- سامي.. سامي.. طب كلمة واحدة.. طب حرّك إيدك.. إرمش طب بعينك.. ما هو أنت مش بالساهل كده تسيبني ولا بالساهل كده أسيبك..

كانت الدكتورة لمياء تشاهده من بعيد قبل أن تقترب منه مسرعة لتختبئ معه خلف هذا الجدار وتقول له: يا أخي وحّد الله بقى وتماسك..

نظر إليها في خواء قبل أن يقول لها: ممكن يا دكتورة طلب؟

قالت له في شفقة بالغة: أؤمرني..

قال لها بصعوبة وكأن الكلمات ترفض الخروج منه: عايز كفن يا ريت من المستشفى الميداني..

أجابته لمياء: هو أنت مش هتجيب أخوك مع باقي الشهداء؟

فال لها سامي: لا أنا هاخد أخويا وأمشي.

كانت لمياء تريد أن تخبره بأنه من المستحيل أن يستطيع إخراج جثة أخيه؛ ولكنها جرّبت عصبيته في تلك اللحظة؛ فرفضت أن تجادله مرة أخرى فقالت له: انتظرني دقيقة، هارجعلك.

انتظرها سمير ونظر إلى ذاك الطفل الصغير الذي يؤذن للصلاة.. كان طفلاً صغيراً يتوارى خلف جدار، ينظر مرة خلف الجدار قبل أن يقول: الله أكبر..

ثم يعود لينظر من خلف الجدار ليطمئن من عدم وجود ما يؤذيه، ثم يعود ليهتف: الله أكبر..

وقبل أن يُتم الأذان أتت لمياء ومعها الكفن.. وساعدت سمير على تكفين أخيه، ثم قالت له: تؤمرني بحاجة تانية

لم ينطق سمير..

قالت له الطبيبة: طب هتخرج إزاي؟

قال لها سمير في شرود: ربنا مش هيسيبني..

رفع نظره إلى السماء، وهو يقول: يا رب، زي ما سترت البنت اللي كانت طفشانة، ساعدني إني اروّح بأخويا.

وهنا رن تليفون أخيه ليجد رقم وائل؛ فأخذه وأجاب عليه: أيوه يا وائل..

وائل: هاااا يا سامي لقيته؟

سمير: أنا سمير يا وائل..

ثم قال ودموعه تنهمر.. سامي مات يا وائل..

وائل في جزع: إيه.. بتقول إيه؟ إزاي؟

سمير: وائل موبايلي عندك؟

وائل: معايا أهو.

سمير: رن على رقم النقيب الجميل كده بسرعة، وإديله رقم سامي وخليه يرن عليّا.

وائل: حاضر.

أغلق سمير الخط، وانتظر رنين التليفون في أمل.. وفجأة أضاءت شاشة التليفون برقم النقيب..

فأجابه سمير: أيوة يا فندم، أنا محتاجك ضروري.

أجابه النقيب: أنا عرفت من وائل أنا جنبك قول لي عنوانك وأنا هجيلك.

سمير في حيرة: هتعرف تدخل؟

الجميل: إن شاء الله..

كـان سمـير واقفـاً وحاضـناً كفـن أخيـه.. وهـذا المشـهد أيضـا التقطته العدسات.. وتكلم عنه المعارضون والمؤيدون.. ولم يعلم أحد أن مَن يحمله هو توأمه.. ولم يعلم أحد أن صاحب المشهد الأسطوري الأول هو الآن في الكفن، ومن كان محمولاً على كتفه هو الآن من يحمله.

ظل سمير واقفاً بحمله على قدمه المصابة، إلى أن جاء النقيب محمد الجميل..

وضعوا الكفن في حقيبة السيارة الخلفية؛ كي لا يعرف أحد من القوات شيئاً، وجلس سمير بجواره

يحاول كتم دموعه كي لا تفضحه.. ثم غادروا الاعتصام بعدما أظهر الجميل كارنيهه أكثر من مرة.

***

(٢٢)

خرج سمير من الاعتصام واتصل بوالده..

أصعب شيء -لمن جرب هذا الإحساس- أن تخبر أحد بوفاة ابنه؛ فما بالك وأنت تخبر أباك

بوفاة أخيك التوأم؟!

لم يدر ماذا قال.. أو ماذا كان رد فعل والده.. المهم أن سامي مات..

وصل سمير إلى كوبري عبود، وكان وائل قد أحضر سيارة تكريم الإنسان، وكان في انتظاره معه المعصراوي الذي أمره سامي أن يظل بعبود تحسباً للظروف

كانو قد اجتمعوا بعد معرفة ما حدث على مشارف كوبري عبود في انتظار سيارة الجميل، وتم إخراج سامي من حقيبة السيارة، ووضعه في سيارة نقل الموتي.. والمعصراوي مفترش الأرض يلطم وجهه كالنساء..

جذبه سمير من يده، وجلس معه بجانب سامي.. وجلس النقيب محمد الجميل بجوار سائق الإسعاف لتسهيل عملية المرور من الكمائن.. وركب وائل سيارة النقيب.

فحمل جثة مصابة بطلق ناري وملفوفة في كفن مغطى بالدماء في هذا اليوم العصيب لهو ضرب من الجنون؛ لكن بوجود النقيب مروا سريعاً من الكمائن؛ فكان الأمر لا يلزم إلا إخراج كارنيه وقت الحاجة.

وفي الخلف ياسر الذي كان ينتحب كالنساء وجسده كله يرتج من بكائه.. كان منكفئاً على الجثة، واضعاً رأسه بين يديه عند رأس صديقه المفضل.. أما سمير كان في عالم آخر..

كان يفكر في غسل أخيه خارج القرية.. فلن يستطيع أن يتم الغسل في البيت أمام أمه وأصدقائه..

سيصبح الأمر فوضى عارمة.

اتصل سمير بتامر أبو الريش إمام مسجد الجمعية الشرعية وابن القرية.. حكى له الأمر، وأنه يريد الغسل في المسجد بالمنصورة، ثم يأخذ أخاه إلى مسجد القرية ليصلي عليه وسط أهله.. فوافق تامر وهو يقول له في تأثر: أخوك إمبارح بالليل لقاني رايح المنصورة جه وصلني مخصوص، ومرضيش ياخد مني فلوس، وقال لي: ابقى ردها لي في حاجة أكبر.. أنا مستنيه عشان أردها له وهخلص لك تصاريح الدفن كمان.

كان الخبر قد انتشر في القرية.. وأصبحت القرية كلها في انتظار الجثة..

كانت القرية كلها تتكلم عن الخبر الصدمة.. كان الكل يتكلم عن زينة الشباب وأشجعهم.. كان الكل يتكلم عن التزامه في الفترات الأخيرة.. وعن ذهابه إلى خصومه ليتصالح معهم..

أما أكثر ما أثر في الجميع ولن ينساه أحد؛ فهو عندما أمسك بميكرفون في الصباح ليعلن عن وفاته؛ فلاول وربما لآخر مرة يعلن أحدهم عن جنازته.

وانتهى سمير من الغسل.. وذهب إلى القرية.. وفي الطريق كانت عشرات السيارات قد أتت إلى مسجد الجمعية الشرعية عند معرفتهم بمكانه.. ودخلت السيارات القرية متوجهة للمسجد الكبير

وأمام بيته..

ومن الزجاج الجانبي، نظر سمير إلى آلاف البشر وقد تجمعوا.. كل القرية.. وكل السائقين في القرى المجاورة.. وكل عمال محطة الغاز.. كانت أعداداً مهولة.. كانت سيارة تكريم الإنسان تظهر وكأنهم يحملونها من تدافعهم عليها..

ورأى سمير هيام وهي ترتمي أمام السيارة صارخة: ابني حبيبي..

كما طلب منها سامي في الصباح..

كانت تصرخ وتمنع السيارة من المرور.. كان مشهد لن يتكرر في القرية..

أخيراً وصلوا المسجد.. وبعد الشد والجذب والتدافع صلوا عليه وسط البكاء والنحيب.. وخرجوا للمقابر.. ونزل سمير تحت نعش أخيه ليحمله من تحت رأسه..

كان سامي قد سأله عن أول جنازة سيحضرونها ثانية سويّاً.. وكانت أول واحدة بعد جنازة الشيخ محسن أبو الرجال هي جنازته هو..

ذهب ليضعه في القبر الذي طالب أن يكون لهم أحد مدفون فيه؛ ليأتوا عقب كل جنازة يدعون له..

لن يقف أمام القبر بعد ذلك ليدعي الحزن أو ليثير إعجاب القرية على فلان الوفي الذي ما زال يذكر فلان الذي مات؛ بل سيظل العمر كله يبكي نصفه الآخر..

دخل القبر مع أخيه وحل الأربطة من عليه، وكشف وجهه واحتضنه وهو يبكي، ورفض الخروج من القبر.. وظل يبكي.. وتعالت أصوات الناس بالخارج والهمهمات ما بين البكاء وبين مطالبته بالخروج..

وأخيراً خرج سمير من القبر.. وجلس أمامه واضعاً رأسه بين يديه يبكي.. ناظراً إلى فتحة القبر التي تُغلق شيئاً فشيئاً..

وجاءه أحد شباب القرية حاملاً حذاءه الذي تركه في المسجد، ووجده يجلس أمامه ليضعه في قدم سمير..

نظر إليه سمير من وسط بكائه..

فقال له الشاب: المعصراوي شافك خرجت من المسجد حافي وشايل النعش؛ فقال لي استني، وآخر جزمة تفضل هاتها للباشمهندس.

ربت سمير على كتفه..

قبل أن ينتهوا من الدفن سحبوا سمير سحباً ليقف في الصف ليأخذ عزاء أخيه.. وبعد انصراف الجميع، لم ينصرف معهم؛ بل ذهب إلى قبر أخيه مودعاً.. ثم نزل إلى مركب ربيع الصياد، ووجد المعصراوي يتبعه..

ركبا المركب دون كلام، وتوجها إلى تلك المنطقة في البر الآخر التي كان سامي يجلس فيها..

جلس سمير وهو يقول: سامي كان بيحب الحتة دي.. كان؟!!! سامي خلاص بقى كان؟

كانت الدموع تخنق كل حروفه.

قال للمعصراوي: عايزك في ضهري اليومين الجايين.

المعصراوي في إخلاص شديد: أنا في ضهرك العمر كله.. الغالي موصّيني أنا وعبد المولى عليك إمبارح..

نظر إليه سمير ثم قال: طب تعالى نروّح.. وعدي على عمك عبد المولى قول له: سمير عايزك عندهم في البيت حالاً.

المعصراوي: حاضر يا غالي.

* * *

مضي سمير يجر أحزانه مع قدمه المصابة جراً وهو متوجه إلى بيته وحيداً وكل نظرات أهل القرية تتابعه في إشفاق..

كان رنين هاتفه المحمول يكاد لا يتوقف.. كانت إصابة قدمه تؤلمه بشدة..

نظر في موبايله ليجد أنها رفيدة..

رفيدة!! الآن تذكرها.. فتح الخط ليسمعها وهي تقول: ألو ألو.. أيوة يا سمير.

سمير: أيوة يا رفيدة.

رفيدة: البقاء لله يا سمير.. والله ما انا مصدقة..ربنا يرحمه.

سمير: اقفلي دلوقت.

وأغلق التليفون دون أن يسألها عن والدها، أو ماذا فعلت..

ووصل بيته.. البيت الذي لن يسمع صوت أخيه مرة أخرى فيه..

وجاء المعصراوي وعبد المولى..

فقال سمير للمعصراوي: عايزك تشوف مين في البلد عازم أصحابي اللي جايين معايا، وتخليك معاهم لما تشوف مين هيسافر ومين هيبات تاخده عندك.. وعدّي على الدكتور خالد عبدالعزيز ابعتهولي عشان يشوف رجلي دي.

نظر إلى المعصراوي وهو ينصرف لينفذ أوامره..

قبل أن يلتفت إلى عبد المولى قائلاً: عارف إنه مش وقته؛ بس عشان نبقى حطينا النقط على الحروف، وعشان تبقى عامل حسابك يا عمي.. عالية مش هتخرج من هنا.. وبعد العدة هتجوزها.

قال له عبد المولى: يا بني دي بنتكم واللي شايفينه اعملوه؛ بس خد وقتك وفكّر براحتك يا ياباشمهندس.. وشاور أهلك، ومتخدش قرار مهم زي ده في لحظة زي دي.

سمير: يا عم عبد المولى الموضوع منتهي.. وبعد العدة بيوم، هات الأستاذ حمادة عبدالمنعم المأذون وتعالى.

عبد المولى: اللي تشوفه يا ابني.

تركه سمير ودخل إلى غرفته ماراً بأبيه وأمه المنهارين تماماً.. وبعض النساء المتشحات بالسواد..

دخل إلى غرفته لتمر أمام عينيه كشريط سينمائي كل ذكرياته مع أخيه.. قبل أن يصل بذكرياته إلى قراره بالزواج من عالية..

لن يكون سهلاً عليه أن يحل محل أخيه.. كم سيكون قاسياً عليه وفوق احتماله أن يترك حياته

وأن يترك رفيدة!!

هذا الحلم الذي استيقظ منه.. لكنه.. لن يترك والديه بعد ما حدث، ولن يترك عالية ليتزوجها آخر..

لن يرضي لبنت أخيه التي ستأتي بعد أيام قليلة أن تكون في بيت غير بيت أبيها.. سيحتفظ العمر كله بملابس أخيه وصوره وأشيائه العادية.. فكيف يتخلي عن زوجته وابنته.

سيعمل على تحويل دراسته هنا.. والتوفيق بين الدراسة وأخذ مكان أخيه في العمل إن استطاع؛ وإن فشل سيضحي من أجل أخيه..

استلقى على سريره في انهيار..

كان قد تماسك بما فيه الكفاية

تماسك حتى يعود بأخيه.. تماسك حتى يتم تكريمه ودفنه.. تماسك حتى العزاء.. تماسك حتى لا يكون حزنه سبباً في التقصير ناحية أخيه..

أما الآن؛ فقد انتهى كل شيء..

لن يرى أخاه ثانية.. لن يقبّله أخوه في كتفه الأيمن مرة أخرى..

وهنا.. بكي.. كما لم يبكِ من قبلُ.. بكي ولن تجف دموعه.. سيظل في القرية ليذكّره كل ركن فيها بأخيه.. لن يترك القرية كما كان ينوي حتى يكسر تلك الأسطورة..

لحظة.. ربما اللعنة هي التي كسرته.. ربما انتصرت عليه قبل أن يبدأ معركته معها.. ولم تجعله يترك القرية..

نعم.. ربما انتصرت عليه اللعنة.. لعنة كفر البرامون.

***